

# ذكريات الطفولة

## الحياة الشعبية، والتعليم، والوعي السياسي في القدس قبل ١٩٤٨\* روشيل ديفيس\*\*

بعلاقات حسنة، تماماً مثلما كان الوضع في القدس، فقد كانت مركزية خصائص الحياة هذه لمدينة القدس، كما ظهرت في ذكريات الناس، هي التي تهيمن على رواياتهم الماضي، وهي التي تجعل طفولة الفلسطينيين الذين نشأوا وترعرعوا فيها قبل نكبة عام ١٩٤٨ فريدة. ستقوم هذه المقالة بتفصيل الحياة في القدس خلال هذه الفترة، وستعرض الخصائص المتعلقة بهذه البيئة الحضرية، من وجهة نظر أولئك الذين نشأوا في المدينة خلال هذه الأوقات التكوينية.

تدرك الدراسات العلمية حول الموضوع، في تعاملها مع ذكريات الطفولة، عدة أوضاع خارجية تؤثر على استذكار الماضي، وذكريات الفلسطينيين عن الحياة قبل ١٩٤٨ هي حتماً متأثرة ومتلونة بأحداث ١٩٤٨ وما بعدها. لهذا، وبالإضافة إلى العوامل المعروفة التي تؤثر على الذاكرة، مثل التقدم في العمر والحنين لبراءة الطفولة، يوجد أيضاً عوامل أخرى تتعلق بدراسة حالة فلسطيني القدس، وتشمل هذه العوامل:

- أحداث العنف والجيشان خلال حرب ١٩٤٨.
- الوضع الحالي للمدينة، حيث أنها مقسمة بين قسم غربي لغالبية يهودية، وقسم شرقي لغالبية عربية.
- عنف متواصل عصف بالمدينة وبحياة سكانها خلال العقود الست الأخيرة.

ويظهر التأثير الواضح على الذاكرة في استذكار عادة الكرمي لحدث مغادرتها وهي طفلة للمدينة، وهي ذكريات استجمعتها من خلال عدسة خمسين عاماً فاصلة:

«ولدت في القدس عندما كانت البلد ما زالت تدعى فلسطين. أتذكر حياة سعيدة ومستقرة مع والدي وأختي وأخي. سكنا في القطمون، الحي الراقي الواقع في القدس الغربية، والذي قطنته عائلات مسيحية ذات وضع اقتصادي جيد، وسكنته أيضاً أقلية مسلمة مثل عائلتنا... كنا نتوقع أن نكبر في وطننا، وأن ندفن يوماً ما في ترابه... في ذلك اليوم الأخير [في نيسان ١٩٤٨] حزمت أمتي بعض الملابس الصيفية لنا في حقيبتين صغيرتين، إذ إننا سنرجع قريباً، كما قالت لنا. رحلنا وقد تركنا خلفنا كل ما نملك من متاع وأوراق ووثائق وصور عائلية، وتذكارات تاريخنا العائلي بأكمله. وعندما جاءت سيارة الأجرة لأخذنا - ولعلها آخر سيارة أجرة جرت على القيام بالرحلة الخطيرة [لحي]

تظهر القدس في ذكريات الفلسطينيين عن طفولتهم قبل العام ١٩٤٨ مدينة عالمية، حيث اختلط فيها أناس من خلفيات إثنية ودينية وأصول قومية مختلفة، كما تبدو مدينة حضنت مؤسسات وفعاليات اجتماعية ودينية وسياسية واسعة التنوع. لقد استحضر الفلسطينيون المقدسيون باستمرار في مذكراتهم، وخلال مقابلاتي التي أجريتها مع عدد منهم، المعايير التعليمية العالية لمدارس المدينة، ووجهها الديني والاحتفالات والمناسبات الدينية المرتبطة بها، والدور السياسي الذي لعبته لكونها مركز حكومة الانتداب البريطاني، وهي ذات المزايا التي صاحبت التنوع السكاني فيها. وبينما تشترك القدس في العديد من هذه المزايا مع مدن فلسطينية أخرى، فيافاً مثلاً حضنت مدارس ممتازة، وكانت مدينة ذات حيوية سياسية، وتمتع أيضاً سكان عكا العرب واليهود

١ لوصف تلك المجموعة من سكان المدينة الذين يعتبرون أنفسهم السكان الأصليين لهذه الأرض وأهلها (indigenous inhabitants). والذين ينتمون إلى حركة وطنية فلسطينية. على هذا النحو. فإن هذه المجموعة الإثنية هي إلى حد كبير لغوياً: عربية. ودينياً: معظمها من المسلمين والمسيحيين. على الرغم من ضمها ربما بعض اليهود العرب. وشملت هذه المجموعة آخرين فكان منهم الأرمن واليونانيين والأفارقة والبوسنيين وغيرهم. وهم من الذين أقاموا منذ فترة طويلة في البلد والذين لم يكونوا من العرب ولكنهم حملوا جوازات سفر فلسطينية. وضع مصطلح «فلسطينيون» في كثير من الأحيان مقابل مصطلح «اليهود» في الفترة ما قبل عام ١٩٤٨. وذلك نتيجة للصراع السياسي بين الفلسطينيين والصهيونية. تستخدم المؤلف هذه المصطلحات في هذه المقالة لأنها الأكثر وضوحاً. حيث أنها مقبولة وشائعة في الاستخدام الحالي لتعريف سكان المدينة.

\* ترجمة سميح حمودة.  
\*\* أستاذة الأنثروبولوجيا في جامعة جورج تاون. واشنطن.

هناك القليل في هذه النصوص ممّا يعكس ويكشف حياة الغالبية من السكان الفلسطينيين المقدسيين: فقراء المدينة والطبقات الدنيا الذين عاشوا ضمن عائلات ممتدة في البلدة القديمة من القدس. وفي حين تناقش السير الذاتية لأفراد من النخبة أحياناً شلّ الصقوف الدراسية وجوانب الحياة الشعبية العامّة الأخرى، فإنها على العموم تنخرط في رمسة (إضفاء طابع رومانسي) على الحياة المقدسية ومعاناة الأسر الفلسطينية من طبقة العمال والطبقة الوسطى. لذا، ولطبيعة المصادر البحثية هذه، فإنّ تجارب الطفولة المتعلقة بذوي الأوضاع الأقل حظاً يجب أن تستنبط وتستكشف من خلال قصص وروايات أخرى. تملك التواريخ الشفوية تمثيلاً أوسع عبر قطاعات السكان، ولكن القليل منها في الحقيقة يمكن أن يزودنا بمعلومات عن الطفولة، وذلك لأن أغلب ما هو منشور من التواريخ الشفوية الفلسطينية يميل للتركيز على العناصر السياسية بدلاً من التركيز على الحياة اليومية وتجارب الطفولة<sup>٢</sup>. تهدف هذه المقالة إلى وضع التجارب المتنوعة للطفولة في القدس قبل عام ١٩٤٨ في الواجهة، وهي تقرّ وتعترف بالحدود المفروضة على المصادر البحثية التي تستخدمها.

القطمون، أتذكر أنه اجتاحني شعور بالسوداوية، وكأنني عرفت أنّ اللحظة التي غادرنا فيها بعيداً ستكون لآخر مرّة، وفي الواقع، لقد كانت هكذا»<sup>٢</sup>.

رغم تأكيدات أبويها أنهم سيعودون، تستبطن رواية غادة الكرمي لذكرياتها مشاعر التشاؤم تجاه مغادرتها لبيتها وما ستعنيه هذه المغادرة في المستقبل. فالأرجح لو أنّ العائلة عادت لمنزلها أنّ هذه المشاعر لن تكون جزءاً من استرجاعها لذكريات ذاك الزمن، بل ستكون منسية، لأنها لن تكون ذات صلة أو أهمية. ولكن، ولكون هواجسها المظلمة حول الحوادث اللاحقة خلال سنة ١٩٤٨ قد وقعت حقيقة على أرض الواقع، فقد تعزّزت هذه الهواجس وتبّنت صحتها في ذاكرتها. إنّ المنفى المستمر في حياة غادة الكرمي، والحالة غير المستقرة للفلسطينيين في المنافي، وعوامل أخرى حاضرة، تزوّد كلها جملة من المعاني، وإطاراً تفسيرياً للمشاعر المجردة والمجهولة وللأحداث الموجودة في الذاكرة، تساهم هذه العوامل في تكوين وخلق ذكريات لا تنفصم بحال عن الماضي، ولكنها غارقة للغاية في الحوادث الحاضرة أيضاً.

إضافة إلى صعوبات العمل مع الذكريات كمصدر لإعادة بناء الماضي، هناك عوامل أخرى تحدّ من البحث التاريخي في موضوع الطفولة. وكما يمكن للمرء أن يتوقع فإن المصادر الحكومية الاستعمارية المألوفة لا تتعامل مع الأطفال، فمثلاً تتضمن إحصاءات الانتداب البريطاني خلال هذه الفترة القليل مما له صلة بهم، باستثناء التعليم. لهذا، وحتى نعرف عن الأطفال في القدس، فإنّ مصادرنا تركز على السير الذاتية والتاريخ الشفوي، ومن المعلوم أنّ السير الذاتية تأتي ومعها قيود أخرى تفرض نفسها على الباحث، وتتضمن مثل هذه القيود الاختيار الذاتي للناس الذين يميلون لكتابة سيرهم الذاتية، ونجد بين الفلسطينيين أنّ الغالبية من السير الذاتية قد كتبت من قبل فئة من الأكثر تعليماً، ومن الناشطين سياسياً، هذا بالإضافة إلى أن كتابها من الرجال أكثر منهم من النساء. تأتي السير الذاتية التي كتبها مقدسيون في الغالب من قبل فئة نخبوية من السكان، مما يرسم ذلك صورة مضلّة لحد ما حول الطفولة في القدس، فهذه الطفولة تصوّر على أنها مليئة بالبراءة وأوقات اللعب، ونراها تدور حول التعليم في المدارس الخاصّة، ويكثر فيها الحديث عن الخدم، بينما

<sup>٢</sup> تركّز روايات التاريخ الشفوي التي جمعتها الكاتبة حول الحياة في القدس قبل عام ١٩٤٨. والتي تم سردها في قسم المقابلات في نيت المراجع. أكثر من غيرها من روايات التاريخ الشفوي على مرحلة الطفولة، لأنه إلى حد كبير، كان تقريباً كل الذين أجريت معهم المقابلات أطفالاً خلال الفترة قبل عام ١٩٤٨. مصدر آخر يتناول فقط مرحلة الطفولة هو كتاب روان الضامن وديما الضامن. **التهجير في ذاكرة الطفولة: شهادات فلسطينية حية. الضفة الغربية: اللجنة الوطنية الفلسطينية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٧.**

<sup>٢</sup> Ghada Karmi, «Leaving the Lemon Tree», April 25, 1998, <http://www.thetablet.co.uk/cgi-bin/register.cgi/tablet-00175> (accessed July 10, 2005).

## ديمغرافية المدينة؛

من السكان اليهود<sup>٦</sup>. وفي زمن الانتداب البريطاني المتأخر حضنت البلدة القديمة السكان الفلسطينيين الأكثر فقراً، وبعض العائلات الراسخة وذات الأوضاع الاقتصادية الجيدة من الموظفين الدينيين، ومن العائلات اليهودية الأكثر تديناً التي عاشت في المنطقة منذ عهد طويل. لقد ضمّ السكان اليهود في البلدة القديمة أعداداً كبيرة من الفقراء ومن أفراد الطبقة العاملة، بصورة مناقضة للحال عند العرب والأرمن واليونان الذين سكنوا المدينة الجديدة، والذين كانوا عموماً القطاع الأحسن وضعا من السكان<sup>٧</sup>.

يقدر عدد سكان القدس قبل نهاية الانتداب البريطاني على المدينة سنة ١٩٤٨ قرابة ١٦٠,٠٠٠ نسمة، كانت الغالبية منهم يهودية (٩٧,٠٠٠)، في حين كان الباقي من المسلمين والمسيحيين (٥٩,٩٨٠)<sup>٨</sup>. أشار الناس للمدينة حتى عام ١٩٤٨ بعبارة المدينة القديمة داخل الأسوار [البلدة القديمة] والمدينة الجديدة، والتي تألفت من مناطق خارج الأسوار من جميع الجهات، ولكن على الأغلب في الجهة اليهود، وقد بلغ عدد السكان اليهود في المدينة الجديدة قرابة ثلاثة أضعاف عدد السكان العرب، في حين كانت المدينة القديمة مستقرّاً للغالبية من العرب والأرمن واليونان، ولنسبة ضئيلة جداً

١ إنّ تحديد عدد سكان القدس هي قضية معقدة خلال العهد العثماني والانتداب البريطاني على حدٍ سواء، ويميل العلماء الصهاينة إلى استخدام تقديرات الزائرين والمقيمين اليهود بدلاً من الإحصاءات الرسمية خلال الفترة العثمانية. انظر التقديرات في:

Yehoshua Ben-Arieh, *Jerusalem in the 19<sup>th</sup> Century: the Old City* (New York: St. Martin's Press, 1986, pp. 353-8).

تكتشف أرقام تعداد السكان العثماني عام ١٩٠٥ عن وجود ما مجموعه ٣٢٤٠٠ من الرعايا العثمانيين في القدس: ١٣٤٠٠ من اليهود. ١١٠٠٠ من المسلمين. و ٨٠٠٠ من المسيحيين. ولا تشمل هذه الأرقام اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون هناك ولكنهم لم يكونوا مواطنين عثمانيين. راجع:

Justin McCarthy, *The Population of Palestine: Population History and Statistics of the Late Ottoman Period and the Mandate* (New York: Columbia University Press, 1990).

ووفقاً لكتاب (Survey of Palestine) فقد بلغ السكان الحضر من جميع الطوائف في القدس عام ١٩٢٢ ما مجموعه ٦٢٥٧٨ نسمة. وبلغ عدد اليهود منهم ٣٣٩٧١. وعدد المسلمين ١٣٤١٣. وعدد المسيحيين ١٤١٩٩ (Survey of Palestine, vol. 1). (١٤٨. ١, p. ١). ومن حيث المواقع السكنية، ففي بداية الانتداب البريطاني كان في منطقة المدينة الجديدة من السكان أربعة أضعاف السكان في البلدة القديمة. ووفقاً لتقديرات بن أرييه، فقد كان توزيع سكان المدينة الجديدة على النحو التالي: ٢٠٠٠-٢٤٠٠ من المسلمين. ويشكلون قرابة ١٥٪ من المسلمين المقدسيين الذين كان يقدر عددهم ١٢٠٠٠. و ٢٩٠٠٠ يهودي من مجموع ٤٥٠٠٠ عدد اليهود في القدس (الأرقام حسب بن أرييه). شكل المسيحيون ١٥٪ من السكان في المدينة الجديدة، أو ما يقرب من ١٠٠٠٠-١٠٠٠٠٠ نسمة. ومع ذلك، فقد استمرت المدينة الجديدة في النمو كمنطقة سكنية للمسلمين والمسيحيين واليهود. ويشهد على ذلك تعداد السكان للعام ١٩٢٢، حيث كان ٣٠.٣٪ من المسلمين يعيشون خارج جدران البلدة القديمة. راجع:

(Ben-Arieh, *New City*, pp. 241, 354, and 366, citing Press Travel Handbook, pp. 125-6 and Kark and Landman, p. 131).

ومن الصعب. إن لم يكن من المستحيل. أن نعرف بالضبط عدد المهاجرين إلى البلاد من الخارج أو المهاجرين من منطقة إلى أخرى داخلها. سواء من اليهود أم من العرب. الذين كانوا يشكلون سكان المدن الجديدة والقديمة.

٧ Rochelle Davis, «The Growth of the Western Communities» and «Ottoman Jerusalem» in Jerusalem 1948: *The Arab Neighbourhoods and*

٤ في نهاية القتال عام ١٩٤٩، تم تقسيم القدس. سيطرت إسرائيل على النصف الغربي من المدينة. بما في ذلك الأحياء العربية في المدينة الجديدة. والتي كانت قد أفرغت تقريباً بشكل كلي من ٣٠,٠٠٠ نسمة هم سكانها الفلسطينيون. بقي نحو ٣٠٠ من الفلسطينيين. معظمهم من الأرمن واليونانيين. بالإضافة إلى العرب: مسلمين ومسيحيين في القدس الإسرائيلية. وقد احتجزوا. مؤقتاً. في منطقة مسيجة أطلق عليها منطقة البقعة. وكانت اثنتان من أسر عائلة النمرّي: أسرة شكري أمين النمرّي ويوسف راشد النمرّي. من بين تلك الأسر التي بقيت في ما أصبح القدس الغربية. راجع: (Taher al-Nammari, «The Growth of the Namamreh Quarter in Baqà,» in *Jerusalem 1948: The Arab Neighbourhoods and Their Fate in the War*, ed. Salim Tamari (Jerusalem: IJS and Badil, 1999), 282).

ولتفاصيل حول وصف للحياة في منطقة البقعة هذه. أنظر: John H. Melkon Rose, *Armenians of Jerusalem: Memories of Life in Palestine* (New York: St. Martin's Press, 1993).

تولّت الأردن السيطرة على النصف الشرقي من المدينة - البلدة القديمة. حي وادي الجوز. وما تبقى من أحياء الشيخ جراح والمصارة. ومجموع ما فيها من السكان هو ٣٦,٠٠٠ نسمة. يُرجع عارف العارف مصدر هذه الأرقام إلى السيد جون مارتن. مستشار المندوب البريطاني لدى الأمم المتحدة (السيد بليك سايكس). الذي قدر عدد المسلمين والمسيحيين في المدينة الجديدة عام ١٩٤٧ بقرابة ٣١,٥٠٠. وعدد من يعيشون في المدينة القديمة بقرابة ٣٣,٦٠٠. وقد بلغ عدد السكان اليهود في المدينة القديمة ٢٤٠٠ وكان هناك ٩٧٠٠٠ يهودي من المقيمين في المدينة الجديدة. راجع: العارف. عارف. *المفصل تاريخ القدس*. القدس: مكتبة الأندلس. ١٩٩٢. ص. ٤٣٠. احتجز الجيش الأردني (الفيلق العربي) اليهود الذين كانوا يعيشون في البلدة القديمة، وتم تسليم هؤلاء إلى إسرائيل بعد انتهاء القتال.

٥ كان الانتداب البريطاني. وكذلك العثمانيون. هم الذين احتفظوا بالإحصاءات القائمة على أساس الدين. وليس العرق أو الهوية. وهكذا. ومن الشائع قيام الباحثين بجمع أعداد السكان المسلمين والمسيحيين لتقدير عدد فئة السكان الفلسطينيين. وهي فئة ربما أكثر وضوحاً بالنظر إلى أن الصراع كان بين الصهيونية والتطلعات الوطنية الفلسطينية. والتي لا تقتصر على دين أو حتى الانتماء العرقي.

## الجدول ١: سكان القدس (ضمن حدود البلدية) خلال الانتداب البريطاني

المجموع*	اليهود	المسيحيون	المسلمون
٦٢,٥٧٨	٣٣,٩٧١	١٤,٦٩٩	١٣,٤١٣
٩٠,٥٠٣	٥١,٢٢٢	١٩,٣٣٥	١٩,٨٩٤
١٥٧,٠٨٠	٩٧,٠٠٠	٢٩,٣٥٠	٣٠,٦٣٠

\* يتضمن المجموع بند «آخرون». الأرقام الواردة أعلاه مقتبسة من كتاب *Survey of Palestine*, Vol. 1, pp. 148-151

يجب أن لا يُفهم من تأطير النقاش الديمغرافي من خلال استخدام تقسيمات الانتماء الديني أنني أقترح وجود انفصال وانعزال بين السكان، ففي الحقيقة كان من المألوف للفلسطينيين في هذه الأحياء تأجير بيوتهم وشققهم السكنية لآخرين من جماعات دينية وإثنية مختلفة عنهم، بما فيها اليهود، ولمهاجرين للقدس من مناطق أخرى من فلسطين. لقد احتفظت كلا الحكومتين: العثمانية والانتدابية البريطانية، بإحصاءات للسكان حسب الانتماء الديني بدلا من الاستناد إلى الإثنية، أو اللغة، أو الانتماء القومي، وهما بهذا قد حددتا لنا الطريقة التي يمكن أن ننظر بها للسكان، كما حددتا الطريقة التي نظر بها السكان لأنفسهم.<sup>١٠</sup> يرتبط تركيز المجموعات الدينية المحددة في حارات وأحياء معينة مباشرة بالفترة الزمنية التي تركوا فيها البلدة القديمة وبمساحة الأرض التي اشتروها آنذاك. ومنذ العقد السابع من القرن التاسع عشر إلى الأربعينيات من القرن العشرين، ورث أو اشترى الفلسطينيون العرب من نسل هؤلاء المرتحلين للأحياء الجديدة [قطعا واسعة من الأراضي، وبنوا عليها بيوتا جديدة كلما كبرت عائلاتهم وزاد عدد أفرادها؛ وبهذا فقد شكلت بيوتهم الجديدة تجمعات عائلية، لعل أغلبها شهرة تجمع عائلة الحسيني وتجمع عائلة النشاشيبي في منطقتي الشيخ جراح والمصرارة، وتجمع عائلة سلامة في الطالبية، وعائلي النمرى والوعري في البقعة الفوقا].<sup>١١</sup>

ضمت هذه الأحياء في المدينة الجديدة السكان الفلسطينيين الذين أخذوا، ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر، بالتوسع خارج البلدة القديمة المكتظة، وذلك بسبب ازدياد الأمن في المنطقة، وللزيادة المضطردة في عدد السكان.<sup>٨</sup> ومع سنوات الأربعينيات [من القرن العشرين] ضمت الأحياء العربية الفلسطينية الراقية، مثل: القطمون، المستعمرة اليونانية، البقعة الفوقا والبقعة التحتا، والطلابية، بين أحياء أخرى؛ ضمت سكاناً ينتمون للطبقة الوسطى-العليا من المهنيين وعائلاتهم، الذين بنوا منازل واسعة وكبيرة وعمارات سكنية. إن نسبة عالية من سكان هذه الأحياء، مقارنة مع مجمل تمثيلهم في العدد الكلي لسكان القدس، كانوا مسيحيين عرباً، أو يونانيين، أو من الأرمين. لقد شكلت العائلات الفلسطينية المسلمة العريقة التي رحلت من البلدة القديمة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الغالبية من السكان في الأحياء الأكثر قرباً منها، مثل: أحياء الشيخ جراح ودير أبو ثور (الثوري) وباب الساهرة، على الرغم من أنهم سكنوا أيضاً في الأحياء الغربية.<sup>٩</sup>

*Their Fate in the War*, ed. Salim Tamari (Jerusalem: IJS and Badil, 1999).

٨ انظر:

Davis, «Ottoman Jerusalem»

٩ في منطقة الشيخ جراح والمستعمرة الأمريكية (الأمريكان كولوني) سكنت عائلات: الحسيني، النشاشيبي، نسبية. جار الله، العفيفي، الدجاني، هندية، الشيخ، غوشة، والجيشة. وضمت حتى باب الساهرة عائلات: النشاشيبي، أبو السعود العفيفي، البديري، الدقاق، كمال، بامية، زباطية، سيدي، بزير، وصندوقة. أما دير أبو طور (الثوري) فقد سكنها عائلات: العوري، الدجاني، وبركات، من ضمن عائلات أخرى. راجع: لنديمان، شمعون. أحياء أعيان القدس خارج أسوارها في القرن التاسع عشر، تل أبيب، دار النشر العربي، ١٩٨٤، ص ٥٠-٥٦.

Ruth Kark and Shimon Landman, «The Establishment of Muslim Neighbourhoods in Jerusalem, Outside the Old City, during the Late Ottoman Period» in *Palestine Exploration Quarterly*, July-December 1980, pp. 121-3, 123-125.)

١٠ الدراسة الشاملة حول الإحصاءات في فلسطين هي: Justin McCarthy's. *The Population of Palestine: Population History and Statistics of the Late Ottoman Period and the Mandate* (New York: Columbia University Press, 1990).

١١ للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع: لنديمان، أحياء أعيان القدس. (مصدر سابق). وراجع أيضاً: Davis, «Growth of the Western Communities». ولمعلومات حول أحياء معينة مثل الشيخ جراح، راجع: لنديمان (١٩٨٤)؛

على عكس ما تذهب إليه الكتابات المعاصرة

لمؤرخي الوجود اليهودي في منطقة القدس وما حولها من التركيز على الانفصال بين الفئات السكانية المختلفة داخل المدينة خلال أواخر القرن التاسع عشر وبدايات ومنتصف القرن العشرين، فإن ذكريات الفلسطينيين حول المدينة، كما تعبّر عنها السير الذاتية والتواريخ العائلية، تركز على العيش المشترك بين مختلف السكان<sup>١٢</sup>. يستذكر محمد زهير النمري وهو أحد سكان البلدة القديمة المسلمين، المنطقة التي سكنتها عائلته: كان لبيتنا [في حارة الشرف بالبلدة القديمة] نافذة واحدة تطل على جيران سريانيين، وكان سورنا مشترك مع عائلات أرمنية، وأطلت الساحة خلف البيت والنافذة الخلفية على عائلات يهودية، لقد كنّا في المنتصف، وكنا كلما مشينا في الشارع نمّر عبر جيراننا السريانيين والأرمن واليهود، كنا معتادين على الشراء والتبادل معهم كلهم، وقد تعلم والدي اللغتين العبرية والأرمنية وتكلم بهما، بالإضافة طبعاً للغة العربية. كنا نحن الأطفال معروفين للجميع، لأننا دائماً كنا نتجول في نفس المنطقة، والكل كان يعرف أننا أطفال عبد القادر، كان بإمكاننا أن نتوقف حيث نشاء ونشترى بالدين. لقد كنا

مجتمعاً صغيراً يعرف الكل فيه الكل<sup>١٣</sup>.

يظهر في المرويات الفلسطينية حول التفاعل المجتمعي بين الفئات المختلفة، أنّ السكان اليهود الذين سكنوا المدينة منذ مدة طويلة عاشوا بجوار السكان العرب، وخصوصاً في البلدة القديمة، واختلطوا بهم. يتذكر المقدسيون الفلسطينيون أن المهاجرين الأوروبيين من اليهود الغربيين (الأشكناز) هم من عزلوا أنفسهم جسدياً وثقافياً ولغويّاً عن العرب الفلسطينيين. يستذكر أنور الخطيب بيت صباه في حارة باب الجديد بالبلدة القديمة، حيث:

كان يعيش داخل أسوار القدس القديمة في تلك الفترة، يهود يمنيون وبخاريون، و كنا على علاقة جيدة معهم رغم مذبحه اليهود في الخليل عام ١٩٢٩. لم نر يهوداً أميركيين أو بولونيين أو.... كلهم كانوا يهوداً محليين، حتى أننا دعوناهم يهوداً عرباً باعتبارهم يعيشون معنا منذ زمن بعيد. أبي كان على علاقة جيدة مع العديد من الحاخاميين اليهود، وأذكر من أصدقائه الذين كانوا يزورونه دائماً بعد صلاة العصر في دكانه، حاخام حارة اليهود وخوري طائفة اليونان، [وكانوا] يلعبون طاولة النرد معا، ويشربون القهوة التي كنت أعدها لهم في الدكان، كنا نعيش بتفاهم تام، لا يوجد حقد أو كره بين العرب واليهود، لم ندرك معنى كلمة "صهيوني" لأننا لم نكن نسمعها. أذكر أن أولادهم كانوا يشاركوننا اللعب أحياناً.<sup>١٤</sup>

تقريباً يستذكر جميع المقدسيين الفلسطينيين «اليهود العرب» على أنهم جيران وأصدقاء جيّدون، كما يتضح من رواية الخطيب لطفولته. وبشكل مماثل يستذكر النمري: «عندما رحلنا من البلدة القديمة للبقعة عندما انفجرت حرب ١٩٤٨، خاطب عديد من أصدقائنا اليهود أبي قائلين لماذا تنقل عائلتك؟ ابق، تذكر أنك واحد منّا». <sup>١٥</sup> إنّ التجاور بين الفئات المختلفة، وخصوصاً في البلدة القديمة، جعل العيش المشترك بينها ضرورة، كما طوّرت الروابط بينها أيضاً.

ازدادت الهجرة اليهودية لفلسطين مع انبثاق الحركة الصهيونية أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر، وأصبح السكان اليهود أغلبية سكان القدس في القرن العشرين.<sup>١٦</sup> إنّ هؤلاء المهاجرين «الأجانب» (وتعني غير

Kark and Landman (1980); Diala Khasawneh's, *Memoirs Engraved in Stone: Palestinian Urban Mansions* (Ramallah: Riwaq, 2001).

ولموضوع تطور حي النمري في البقعة الفوقا. راجع:

Taher al-Nammari, «The Growth of the Namamreh Quarter in Baqâ» in Jerusalem 1948: *The Arab Neighbourhoods and Their Fate in the War*. Editor Salim Tamari. 1<sup>st</sup> ed. (Jerusalem: IJS and Badil, 1999).

<sup>١٢</sup> راجع على سبيل المثال صور المدينة في كتب ومصادر مثل:

Ben-Arieh, Yehoshua. *Jerusalem in the 19<sup>th</sup> Century: Emergence of the New City and Jerusalem in the 19<sup>th</sup> Century: the Old City* (New York: St. Martin's Press, 1986); Kark, Ruth and Shimon Landman. «The Establishment of Muslim Neighborhoods in Jerusalem, Outside the Old City, during the Late Ottoman Period» in *Palestine Exploration Quarterly*, July-December 1980, pp. 113-135; Kark, Ruth. *Jerusalem Neighborhoods: Planning and By-laws, 1855-1930*. (Jerusalem: Mount Scopus Publications, 1991); Schmelz, U.O. «Notes on the Demography of Jews, Muslims and Christians in Jerusalem» in *Middle East Review*, Spring-Summer 1981; Schmelz, U.O. *Modern Jerusalem's Demographic Evolution*. (Jerusalem: The Institute of Contemporary Jewry, 1987); Shapiro, S. «Planning Jerusalem: The First Generation, 1917-1968» in *Urban Geography of Jerusalem: A Companion Volume to the Atlas of Jerusalem*. (New York: Walter de Gruyter, 1973).

١٣ مقابلة مع محمد زهير النمري أجريت في عمان. الأردن بتاريخ ٦ تموز/يوليو ١٩٩٩.

١٤ أمين الخطيب. تذكرات. جامعة بيرزيت. ١٩٩٢. ص ٧-١.

١٥ مقابلة مع محمد زهير النمري أجريت في عمان. الأردن بتاريخ ٦ تموز/ يوليو ١٩٩٩.

١٦ راجع الملاحظة رقم ٦ أعلاه. لم تتشكل الطائفة اليهودية

العرب في أعين السكان العرب الأصليين) عزلوا أنفسهم عن السكان العرب، وكانت الأحياء اليهودية الجديدة الواقعة خارج أسوار البلدة القديمة متجانسة بسكانها اليهود تقريباً، مع وجود قليل وعارض لسكان ومتاجر عربية بينهم.<sup>17</sup> لقد تعزز الانفصال مع إصرار الجاليات اليهودية منذ بداية حكم الانتداب البريطاني سنة 1920 على أن تكون المدارس الحكومية اليهودية منفصلة عن غيرها، وقد ساهم هذا في تشكيل هوية يهودية جماعية متميزة، وفي انتشار اللغة العبرية كلغة مشتركة بين اليهود. وبالإضافة إلى الانعزال الذاتي لليهود في قطاع المدارس القائمة، قامت المدارس الخاصة اليهودية أيضاً بفضل أطفال الفئتين السكائيتين عن بعضهما البعض، وتحفظ ذاكرة العديد من الأطفال الفلسطينيين بذكرى الطلاب اليهود القلائل الذين درسوا في المدارس الخاصة غير اليهودية - الدينية منها والعلمانية - كما سئرى أدناه. لقد عززت استضافة القدس للعدد الكبير من السكان الأجانب من تعدديتها وتنوعها، وكانت الغالبية من هؤلاء الأجانب مكونة أساساً من: موظفي الحكومة البريطانية وعائلاتهم، ومبشرين أوروبيين، وآخرين لديهم أسباب دينية للعيش في الأرض المقدسة. لقد كانت أرقى مدارس البنات تدار من قبل أجانب، مما سمح بالاختلاط بين الطالبات من أديان وقوميات أخرى بالإضافة إلى تعريضهم لتقاليد تربوية وتعليمية متنوعة. وعلى سبيل المثال، تأسست المستعمرة الألمانية على أيدي الألمان الهيلكيين، بهدف تأسيس «طائفة مسيحية مثالية في الأرض المقدسة».<sup>18</sup> استأجرت عائلة السكائيني المكونة من: الوالد خليل، الأم سلطنة، العمة مليا، الابنتين دمية وهالة، والابن سري؛ استأجرت منزلاً في المستعمرة الألمانية، وذهبت البنات للمدرسة الألمانية. تستذكر هالة السكائيني:

لقد كان هناك عدد من التلاميذ العرب والإنجليز لا يتجاوز عدد أصابع اليد ضمن المئة، أو ما يقاربها، من الأطفال الألمان. كان قرب المدرسة من البيت مريحاً لنا،

فكنا نصل إليها مشياً على الأقدام خلال سبع دقائق. وحيث أن أغلب زملائنا في الصف وأصدقائنا سكنوا في المستعمرة أيضاً، فقد كانت كلها ملعباً لنا ونشأنا على حب كل جزء منها.<sup>19</sup> وحيث أن التعليم في مدرستنا كان مختلطاً بين الجنسين، فقد تعلمنا ألعاباً كثيرة كانت تعتبر ألعاباً خاصة بالصبيان... لقد كان معروفاً خاصاً من الأولاد تجاهنا أن يسمحوا لنا بركوب دراجاتهم الهوائية في المدرسة، وبعد عدد من المرات التي ركبت فيها الدراجة في ساحة المدرسة بدأت أحلم بالحصول على دراجة هوائية خاصة بي، ويبدو أنني عيّرت مراراً وتكراراً عن رغبتني هذه في البيت، لأنه بعد وقت قصير أهدي إلينا دراجة كبيرة وجديدة، لم نصدق أعيننا، إنه الشيء الذي كنت أتوق إليه، ولقد كنت جد سعيدة به، وقد قضيت منذ ذلك اليوم ساعات كثيرة بعد المدرسة رابكاً هذه الدراجة.<sup>20</sup> إن اللقاءات مع الأطفال الأجانب ومع الأولاد أصحاب الدراجات زوّدت هالة السكائيني بتجارب غير مألوقة عند البنات الفلسطينيات في ذلك الوقت، وما له دلالة أكبر في هذا السياق هو قابلية عائلتها وقدرتها المالية على شراء دراجة هوائية لها، مما يعكس انفتاح العائلة في قضية تعليم البنات، لا غرابة في ذلك فقد كان والدها، خليل السكائيني، مربياً وتربوياً معروفاً، وقد أحدث ثورة في حقل التعليم في فلسطين خلال هذه الفترة، وكانت أمها معلمة قبل زواجها من أبيها.<sup>21</sup> وبينما كانت تجربتها خروجاً عن القاعدة والمألوف في ذلك الوقت، فقد عاشت هالة وأختها دمية بقية حياتهما الطويلة معلمتين، وبهذا فلا شك بأن تجاربهما أثرت على أجيال من الأطفال الفلسطينيين.

لم تقم كل المدارس الأجنبية بمزج التلاميذ الأجانب مع التلاميذ الوطنيين المحليين. لقد ذهبت سميرة عبد الهادي لكلية القدس للبنات، وقد كان فيها مدرسة منفصلة للإنجليز، على أية حال كانت الهيئة التدريسية مكونة بأكملها من المعلمات من الجنسية البريطانية (باستثناء اللغة العربية، والتي كان معلمها فلسطينياً

الأغلبية في فلسطين. رغم ذلك فقد بلغت نسبة عددها لمجموع السكان عام ١٩٤٨ قرابة ٣٢٪ وامتلكت قرابة ٧٪ من الأرض.

١٧ راجع بن أريه. يهوشع

Yehoshua Ben-Arieh, *Jerusalem in the 19<sup>th</sup> Century: Emergence of the New City* (New York: St. Martin's Press, 1986); Ruth Kark, *Jerusalem Neighborhoods: Planning and By-laws, 1855-1930* (Jerusalem: Mount Scopus Publications, 1991), among many others.

١٨ John H. Melkon Rose, *Armenians of Jerusalem: Memories of Life in Palestine* (New York: St. Martin's Press, 1993), 93.

١٩ Hala Sakakini, *Jerusalem and I: A Personal Record*, 2<sup>nd</sup> ed. (Amman, Jordan: Economic Press Co., 1990), 16.

٢٠ Sakakini, *Jerusalem and I*, 17-18.

٢١ ولد خليل السكائيني (١٨٨٧-١٩٥٣) ونشأ في القدس. أنشأ المدرسة الدستورية، خلال العهد العثماني. كما أنشأ المدرسة الوطنية عام ١٩٢٥، وكلية النهضة عام ١٩٢٨. نشر السكائيني عدداً من النصوص والكتب المدرسية لتعليم اللغة العربية للأطفال. وقد نشر مركز خليل السكائيني برام الله ومؤسسة الدراسات المقدسية مذكراته في ثمانية مجلدات. أنظر:

(Khalil Sakakini Centre, Ramallah, <http://www.sakakini.org/aboutus/sakakini.htm>, (accessed July 20, 2004).).

ذكراً). تستذكر سميرة عبد الهادي أن الطالبات كنّ من الفئات الدينية الثلاث في فلسطين:

كان لي صديقات حتى يهوديات. وكانت المدرسة مليئة بالطلاب اليهود، أكثر من مدرسة شميدت [مدرسة ألمانية داخلية للفتيات كانت واقعة فيما يسمّى الآن شارع هليل في القدس الغربية]، لأنها كانت في رحافيا (حي في القدس أغلب سكانه من اليهود). وكان لي صديقات يهوديات وكُنّ رائعات، لم يكن هناك فرق بيننا وبينهنّ، كنّا جيدات مع بعضنا البعض، وقد جاءت الكثيرات منهن من حيفا ويافا، وكُنّ في القسم الداخلي.<sup>٢٢</sup>

لقد سمحت هذه المدارس الأجنبية لطلاب من الفئات الدينية بالدراسة سوية، وليس من المثير للدهشة أن الروايات الفلسطينية حول سنوات المدرسة تسترجع العديد من الصداقات، وكذلك حالات عداة طارئة، بين الفلسطينيين، المسيحيين منهم والمسلمين واليهود. إن هذه الذكريات عن أوقات كانت جيدة وكان الناس يتعاشون مع بعضهم البعض؛ هيمنت على ذكريات الفلسطينيين عن هذه الفترة.

لقد أوجدت ديمغرافية السكان في القدس بيئة عالمية، امتزج فيها أناس من أصول إثنية ودينية وقومية مختلفة، وضمت عرباً، ويوناناً، وأرمناً، ويهوداً من أوروبا وروسيا والشرق الأوسط، وموظفين بريطانيين حكوميين وعائلاتهم، ومبشرين دينيين من أوروبا والولايات المتحدة، وغالباً ما احتك الأطفال بهؤلاء الناس، المختلفين عنهم، في أحيائهم وفي المحلات التجارية المحلية، وفي المدارس، و قدّمت أحياناً مناسبات الزواج جماعات اجتماعية وإثنية وقومية جديدة (وأحياناً أقل أتباع أديان جديدة) للحياة العائلية.<sup>٢٣</sup> وحين يستحضر الفلسطينيون ذكريات طفولتهم حول اليهود، فإنّ هذه الذكريات تتأثر ب[صراعهم مع] الحركة الصهيونية، وبإنشاء

٢٢ مقابلة مع السيدة سميرة عبد الهادي، أم موسى، أجريت في القدس بتاريخ ١٧ آذار/ مارس ١٩٩٩.

٢٣ الغوص في تاريخ العائلات يكشف العديد من الأمثلة على هذا النوع من العلاقات. وهكذا، يظهر أن الرجال في هذه الفترة تزوجوا نساءً من سوريا ولبنان. إما عن طريق الأقارب أو أشخاص التقوا بهم في الجامعة أو من خلال علاقات العمل الأسري: تزوج الرجال نساء يهوديات كنّ قد هاجرن إلى فلسطين. على سبيل المثال، رجل مسيحي من عائلة رجال من عين كارم تزوج امرأة من اليهودي الأرثوذكس من القدس. والتي وإن لم تكن شائعة. هي واحدة من عدد من الحالات، وقد تزوجت نساء مسيحيات رجالاً أجنب. فوالدة جون ملكون روز الأرمينية تزوجت جندياً بريطانياً. أنظر: (Rose, Armenians of Jerusalem) أو الرجال الذين تزوجوا نساءً أجنبيات. خصوصاً بين المسيحيين. كان من المؤلف الزواج من اليونانيات. تزوج أفراد من عائلة جمال. رجالاً ونساءً، وكانوا يعيشون في القطمون: تزوجوا من روسيا. أميركا. بريطانيا. ومصر.

دولة إسرائيل، والتي تسببت غالباً بنهاية وجود هؤلاء الفلسطينيين في القدس، ونهاية تجاوز عائلاتهم، وضياح الكيان الاقتصادي الجيد لهم. ولكن، وكما تم توضيحه أعلاه في عدة أمثلة، فإن الصراع والتأزم لا يهيمن على هذه الذكريات، بل على النقيض فإنها تتحدث عن الخصائص المشتركة بين الأطفال والعائلات من الفئات المختلفة. في الحقيقة فإن الأعراف الثقافية المشتركة - كما نجد في التمييز الذي يقيمه الفلسطينيون بين «اليهود العرب» و «المهاجرون اليهود» - تبدو مرتبطة أكثر بذكريات الناس الذين يعيشون مع بعضهم البعض من ارتباط الفروقات الدينية بهذه الذكريات. وهكذا، فإن سكان المدينة هؤلاء: اليهود، العرب، المسلمين، المسيحيين، اليونان، الأرمن، والذين جعلوا من أنفسهم جزءاً من الجو العالمي والتاريخي للقدس، كانوا أيضاً جزءاً من ثقافة مشتركة تركزت حول قبول التعدد الديني والتسامح.<sup>٢٤</sup>

## القدس والهجرة إليها من الريف والمدينة

لقد كان المجتمع المدني الفلسطيني في النصف الأول من القرن العشرين على وجه الخصوص جوّالاً، لكلا الأغنياء والفقراء، إذ لم يكن سكان القدس الفلسطينيون ساكنين، فقد تزوج أناس من أقارب أو من غرباء من أجزاء أخرى من فلسطين، وهرب آخرون من حر الصيف وقضوا أوقاتاً على أراض أو بيوت عائلية خارج المدينة، فيما عاد آخرون إلى قرأهم الأصلية لمساعدة عائلاتهم في العمل، حتى أن العديد منهم جاؤوا من كافة أرجاء البلد ليدخلوا مدارس داخلية في المدينة. إن هذه الحركة لم تجعلهم أعضاء أكثر أو أقل في المدينة، ولكنها بدلاً من ذلك ترمز إلى ممارسات السكان الفلسطينيين بشكل عام والممارسات في أغلب «الشرق».<sup>٢٥</sup>

٢٤ بلغني من قبل العلماء الذين يعملون على ذكريات اليهود في المدينة خلال هذا الوقت أن هناك عدداً أقل من الذكريات عن يهود كانوا يعيشون ويتفاعلون مع العرب. يعود جزء كبير من السبب إلى أن اليهود كانوا المجموعة الأكبر وأنهم عزلوا أنفسهم عن بقية السكان. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الناس الذين كتبوا سيرهم الذاتية الخاصة بهم لم يكونوا من اليهود العرب. الذين كان لهم معظم الاتصال مع السكان الفلسطينيين.

٢٥ في هذا السياق، فإن الجدل حول رواية إدوارد سعيد بانقسام أيام طفولته بين القدس والقاهرة، التي حاول منتقدوه تحويلها إلى دليل على افتقاره إلى «الهوية الفلسطينية»، يكشف بدلاً من

وهكذا فإنه حري بنا في تقويم النسيج الحضري للسكان في القدس، وفي سائر «الشرق»، خلال الفترة العثمانية وصاعداً حتى اليوم، أن نفهم الطرق العديدة التي ارتبط بها الناس بالمكان، والتي تتضمن: الأصل، العاطفة، الميلاد، الهجرة والتعليم، وأن نفهم كيف يمكن لهذه أن تؤخذ بالحسبان في تعبيرات الناس عن كيف كانوا. إن القيام بهذا يتجنب الرغبة اللاتاريخية لفرض حدود الدولة-القومية المعاصرة، كما يتجنب أساليب وطرق التعريف الحالية ووجهات التفكير في تعريف هويات الناس.

لقد كانت النخبة المتعلمة المقدسية على وجه الخصوص جولةً خلال هذه الفترة، إذ امتلكت العائلات المقدسية العريقة والراسخة والثرية، مثل عائلتي الحسيني والعلمي، بيوتاً صيفية في القرى التي كانت عائلاتهم من أصحاب الأملاك، كما امتلكت بيوتاً شتوية في أريحا للاستمتاع بدفء وادي الأردن.<sup>٢٦</sup> ولكون فلسطين بلداً صغيراً نسبياً فإن السفر لهذه البقاع لم يكن صعباً، وخصوصاً خلال عقد العشرينيات من القرن العشرين، حيث شقت الطرق وأصبحت السيارات أكثر شيوعاً. وبالمثل فقد قضت النخبة الياقوية الثرية فصول الصيف في مناطق رام الله وبيت لحم وفي زيارة الأقباط بالقدس. وعلى أساس أكثر ديمومة، فإن الهجرة الحضرية بين أفراد النخبة أوفدت الناس للقدس، بسبب أهميتها كمركز لحكومة الانتداب البريطانية، وللفرص التعليمية في الكلية العربية وفي معاهد أخرى، وأيضاً بسبب الأهمية الدينية للمدينة والمؤسسات التابعة لرجال

الدين المسيحيين ولرجال الدين المسلمين.<sup>٢٧</sup> لقد ترعرع أطفال هؤلاء المهاجرين وغالباً ما تزوجوا بالقدس، بيد أنهم عادوا لبيوت عائلاتهم الممتدة خلال العطل والأعياد (الدينية والصيفية)، وكذلك عادوا لحضور الجناز والأعراس ومناسبات الولادة وما أشبه.<sup>٢٨</sup> جرت هجرة كبيرة للقدس من بين أبناء الطبقة الوسطى المتنامية ومن بين الفقراء، (على الرغم من أنها ربما لم تكن بحجم هجرة العمال إلى يافا وحيفاً)، وهاجر خاصة رجال الأعمال والحرفيون والعمال اليهوديون.<sup>٢٩</sup> تشكل الأسر من مدينة الخليل في القدس المعاصرة العنصر الأكثر وضوحاً في هذه الهجرة اليوم. ويقدم عودة الأشهب الذي ولد ونشأ في مدينة الخليل سرداً ومثلاً لهذه الهجرة، لقد كان الوضع الاقتصادي لعائلته هو ما دفعه واثنتين من إخوته الأكبر سنّاً لترك المدرسة والاتجاه نحو العمل،<sup>٣٠</sup> لم يبق أي من الأخوة الثلاثة في الخليل، ولكن بدلاً من ذلك ذهب كل واحد منهم في عام ١٩٣٤ تقريباً إلى القدس من أجل العثور على عمل. يصف الأشهب والده في سيرته الذاتية بأنه كان غير قادر على رعاية زوجته وأطفاله العديدين، فقد كان مديناً بعد قيامه ببناء طابق ثالث في منزل العائلة، ولاضطراره لإغلاق متجره، الذي كان يبيع فيه القماش. ترك عودة وشقيقه عيد الخليل، وكان في سن الثالثة

<sup>٢٧</sup> للمزيد حول الهجرة للقدس من أجل طلب العلم، راجع:

Rochelle Davis, «Commemorating Education: Recollections of the Arab College in Jerusalem, 1918-1948» in *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 23:1 & 2 (2003).

<sup>٢٨</sup> تزخر السيرة الذاتية وروايات التاريخ الشعبي الشفوي بهذه الأنواع من القصص على سبيل المثال. تبدأ السيرة الذاتية لغادة الكرمي (*In Search of Fatima*) (البحث عن فاطمة). بالقول أنها وأخوتها تركوا في القدس في المدة التي عادت فيها والدتها إلى طولكرم لحضور جنازة عم غادة. وتستذكر سميرة عبد الهادي التي ولدت ونشأت في القدس. العودة إلى منطقة جنين. مقر عائلة عبد الهادي القوية. في كل عطلة دينية للمسلمين. كان والدها. روجي عبد الهادي. قد تزوج امرأة من أسرة النشاشيبي المقدسية. وبنيت العائلة منزلاً في القدس. والذي أصبح الآن مقر القنصلية البلجيكية في الشيخ جراح. على الأرض التي أعطيت لأهلها من قبل والدها (جد سميرة). (مقابلة مع سميرة عبد الهادي البديري. أجريت في القدس. آذار/مارس ١٩٩٩).

<sup>٢٩</sup> للمزيد من النقاش حول هجرة المدن. راجع:

May Seikaly, *Haifa: Transformation of an Arab Society 1918 - 1939* (NY: I.B.Tauris, 2002).

<sup>٣٠</sup> كتب الأشهب القليل عن والده المتوقى. وكان جده هو الذي يعتني بالعائلة. وقد توفي في حادث عندما كان الأشهب في سن الثالثة عشرة. الأمر الذي دفع الأولدين الكبيرين للذهاب إلى القدس للعثور على عمل. صفحات من الذاكرة الفلسطينية: تذكارات عودة الأشهب. بيرزيت: جامعة بيرزيت، ١٩٩٩. ص. ٦-٥.

ذلك جانباً هاماً من جوانب المجتمع الفلسطيني في المناطق الحضرية: لقد عاشت النخبة الفلسطينية الحضرية داخل دوائر واسعة من علاقات العائلة والعمل، والتي ربطتهم بمناطق خارج مدينة واحدة محددة.

«My Beautiful Old House; and Other Fabrications by Edward Said,» *Commentary* 108 (1999): 23-31. See also <http://www.meforum.org/wires/weiner.shtml>

(تمت المراجعة للموقع في ٦ تموز/يوليو ٢٠٠٢). Listen

<sup>٢٦</sup> انظر رواية سيرين الحسيني شهيد حول البقاء في قرية شرفات في سيرتها الذاتية:

*Jerusalem Memories* (Beirut: Naufal, 2000)

جزء من هذه السيرة نشر في:

*Jerusalem Quarterly File*, Issue 8, 2000,

<http://www.jerusalemquarterly.org/details.php?cat=8&id=86>

(تمت الزيارة في ١٢ شباط/فبراير ٢٠٠٧). ويرد وصف لمنزل عائلة العلمي في أريحا في خصوصاً ٢٠٠٢. وكان لعائلة زلاطيمو المقدسية. المعروفة باشتغالها في الحلويات في البلدة القديمة. منزلان وقطعة أراضٍ ونبع ماء بالقرب من قرية عين قينيا (بالقرب من رام الله) (مقابلة مع عارف زلاطيمو. تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩. أجريت في عمان. وقد زارت الكاتبة هذه المنازل في عام ١٩٩٩).



عشرة والخامسة عشرة على التوالي، ومعهما تعليمات من قبل والدتهما بالعثور على زوج أختهما الكبيرة، سعود السليمي، والذي كان قد ذهب إلى القدس للعمل،<sup>٣١</sup> إذ كان السليمي قد استأجر مساحة كبيرة مفتوحة في البلدة القديمة بالقرب من دير اللاتين في شارع اللداودة، وكان يؤجر فيها مواقف لوقوف السيارات والعربات التي تجرها الخيول، وعندما وصل عودة وعيد للسليمي وأبلغاه أنهم تلقوا تعليمات من قبل أمهم بالبقاء معه، وقع الأخير في بعض الحيرة، لأنه لم يكن لديه مكان للسكن، ويصف الأشهب وضعه على هذا النحو: كان السليمي قد كدّس عدداً قليلاً من الصناديق الخشبية عند مدخل المرآب، ووضع فوقها فرشاً باليةً ووسادةً قذرة، وعلى هذا الفراش كان ينام في الليل، ويجلس أثناء النهار، وكان أحدهم قد وضع خزانة كبيرة لها رقان خشبيان في المرآب، فاقترح السليمي أن ينام الصبيان فيها، بدون فراش أو غطاء، لأنه لم يكن يملك ذلك، كما أنّ الولدين لم يحضرا معهما أي شيء باستثناء بعض الملابس، ووجد الولدان عملاً عند بائع خضروات وفواكه، وذلك عن طريق ابن للسليمي من زواجه الأول، وهو صبي اسمه عبد الحميد. يستذكر الأشهب هذه الأيام الأولى كالآتي:

كنا على استعداد للعمل بأية مهنة، عملنا عند أحد بائعي الخضار والفواكه في «سويقة علون» بالقرب من القلعة داخل سور القدس القديمة، وكان اسمه سليمان المتولي، بأجر مقداره خمسة قروش لأخي عيد، وأربعة قروش لي في اليوم، على أن يبدأ العمل منذ فجر اليوم إلى ما بعد العشاء. كان علينا أن نصحو باكراً كل صباح كي نصحبه إلى حاسبة الخضار لنقل صناديق الخضار والفواكه إلى حانوته كي لا يدفع أجرة «للعتالة»، وبعد ذلك نرتب وننظف البضاعة، وحين يُقبَل الزبائن ويشتررون كان علينا أن نوصل المشتريات لكل من يرغب بذلك إلى بيته. وكان هذا العمل المرهق يدوم لساعة متأخرة من المساء، وهذا «المعلم» لا يسمح لنا بالراحة أبداً. وكان يردد دائماً على مسامعنا: «اليد التي لا تعمل تستحق القطع»، وإذا تأخرنا عن الوصول إلى العمل بسبب التعب أو المرض أو أي سبب آخر يأخذ في الصباح و توبيخنا بأبشع الكلام و تهديدنا بالطرده من العمل.<sup>٣٢</sup>

من المؤكد أن تكون المصاعب التي واجهها الفتیان والشبان الذين تركوا منازلهم ومدارسهم للعمل في مثل هذه الظروف صعبة عليهم وعلى أسرهم على حدٍ سواء. وبينما كان هناك مئات من الفتیان الذين نشأوا في حالات مماثلة، ولكن تبقى سيرة الأشهب الذاتية واحدةً من عدد قليل من المذكرات المكتوبة عن مثل هذه التجارب. تظهر رواية الأشهب بوضوح قوة الروابط الأسرية بين المهاجرين الفقراء في محاولة منهم لشق طريقهم وتدبير عيشهم في المدينة. إن حياة الشبان الذين درسوا لبيع سنوات ثم انطلقوا بعدها إلى حقل العمل، إما كعمال بأجر أو كمتدربين عند الحرفيين، تملأ فراغاً كبيراً في فهمنا للحياة في المدينة. فقد كان الأولاد الذين أتوا من عائلات الطبقة الوسطى أو من العائلات التي تمتعت بوضع اقتصادي أو اجتماعي جيد، والذين كانت ظروف طفولتهم أسهل، هم أكثر من كتبوا سيرهم الذاتية الخاصة.<sup>٣٣</sup> إن هذه المحدودية في المصادر لا تنطبق فقط على حالة القدس، ولكنها صحيحة أيضاً في حالة كثير من المراكز الحضرية الأخرى في فلسطين وفي العالم العربي خلال هذا الوقت.

بالإضافة إلى هؤلاء المهاجرين، فقد جاءت شابات كثيرات ورجال كثيرون من القرى المحيطة بالمدينة للعمل فيها عمالاً مياومين، وكذلك للعمل في منازل وحدائق المقدسيين الأثرياء. جاء البعض وهم في سن المراهقة وغير متزوجين، بينما كان آخرون من كبار السن قليلاً، وقد تركوا أطفالهم وراءهم مع عائلاتهم في قرَاهم التي أتوا منها. تصف غادة الكرمي المرأة فاطمة الباشا، التي كانت تطهو وتنظف في بيت الكرمي، وتساعد أيضاً في تربية الأطفال، لقد كانت فاطمة من قرية المالحه القريبة، وكانت تأتي إلى بيت الكرمي كل يوم مشياً على الأقدام، وكان شقيقها يعمل حارساً في

المزيد عن قلعة انظر محمود الهواري:

Mahmoud Hawari, «The Citadel (Qalā) in the Ottoman Period: An Overview» in *Ottoman Jerusalem: The Living City 1517-1917*, ed. Sylvia Auld and Robert Hillenbrand (London: Altajir World of Islam Trust, 2000), pp. 493-518).

٣٣ هناك القليل من السير الذاتية الفلسطينية (جميعها كتبها رجال، ولكنها ليست فقط من القدس) التي يصف كاتبوها نشوءهم في ظروف صعبة. لكنهم يصيبون في مرحلة الرجولة كل نجاح معقول. انظر على سبيل المثال. أعمال: عودة الأشهب. إبراهيم صنوبر. زكي حسن المصري. رشد عرنكي. وتوفيق أبو شريف. تأتي معظم السير الذاتية الفلسطينية من أناس جاءوا من عائلات الطبقة العليا أو ممن تلقوا تعليماً جيداً: غادة الكرمي. سيرين الحسيني شهيد. فدوى طوقان. هالة السكاكيني. عنبرة سلام الخالدي. جميل طبة. مفيد عبد الهادي. واصف جوهرية. وصبحي غوشة. وهذه ليست سوى أمثلة قليلة.

٣١ كان الأخ الأكبر أسعد. وهو من زوجة أخرى لوالده عودة. قد سبق أخويه عودة وشقيقه عبد إلى القدس. حيث كان يعمل مع خاله. علي الشعيان. في محل للفاكهة والخضروات.

٣٢ الأشهب. تذكّرات. ص. ٧. المقصود بالفلعة التحصينات داخل بوابة يافا (باب الخليل). مبانيها الحالية هي جزء من تعديرات القرن السادس عشر للسلطان العثماني سليمان القانوني. على الرغم من أن المنطقة قد تم البناء فيها من قبل كل المجموعات التي سيطرت على المدينة في حقبة ما. لمعرفة

من مختلف الطبقات والخلفيات الاقتصادية؛ في تزايد وعيهم بتميز وتفرد سكان وموقع القدس داخل المجتمع الفلسطيني.

## التعليم في القدس

حوّلت القدس نفسها من موقع للتعليم الديني خلال فترة منتصف العهد العثماني، لتصبح منذ عهد الانتداب البريطاني شبكة ربط إقليمية، معروفة بأخذها بالمعايير العالية من التعليم العلماني، وربما كانت باعتبارها مركزاً للتعليم الديني الإسلامي الأكثر شهرة واحتراماً خلال الفترة الممتدة بين القرنين التاسع والثاني عشر الهجريين (الخامس عشر إلى الثامن عشر ميلادية).<sup>٢٨</sup> كان تعليم الأطفال في فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، كما كان الحال في أماكن أخرى من العالم، امتيازاً، على الرغم من أن العائلات المقدسية التي كان يمكن لها أن تعيش دون الاعتماد على الدخل القادم من عمل أبنائها قد وجدت فائدة كبيرة في إرسال هؤلاء الأبناء إلى المدرسة. لقد ارتفع عدد المدارس بشكل كبير في فلسطين، وخصوصاً في القدس، خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ويظهر منشور عن التعليم في سورية الكبرى يعود للعام ١٨٨٢ ميلادية إلى وجود ما مجموعه ٣٨٥٤ طالباً في مدارس القدس (٢٧٦٨ من البنين و١٠٨٦ من البنات) و٢٣٥ من المعلمين.<sup>٢٩</sup>

بعد إنشاء الانتداب البريطاني عام ١٩٢٠، تعهدت السلطات أنه «سيكون لكل طفل في فلسطين فرصة الذهاب إلى المدرسة» في غضون أربع سنوات من بدء عمل الإدارة المدنية.<sup>٤٠</sup> لكن حكومة الانتداب فشلت

٢٨ بينما كتب القليل بالعربية حول هذا الموضوع. وحتى أقل من ذلك باللغة الإنجليزية. أحد المصادر هو تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر هجري لمؤلفه حسن بن عبد اللطيف الحسيني. وقد حرره وعلق عليه ونشره في طبعه جديدة سلامة صالح النعيمات. وكان عمله أطروحة للدكتوراه قدمها للجامعة الأردنية بعمان. سنة ١٩٨٥.

٢٩ Graham-Brown, p. 15, citing «Education in Syria» by Shahin Makarius, 1883.

٤٠ An Interim Report on the Civil Administration of Palestine, (London: HM Stationery Office, 1920-21), 51, quoted in A.L. Tibawi, Arab Education in Mandatory Palestine: A Study of Three Decades of British Administration (London: Luzac and Co, 1956), 156.

انظر أيضاً هيرت صموئيل. المندوب السامي. الذي كتب في مذكراته: «كنت قد أعطيت هذا الأمر (أي التعليم العربي)

المدرسة العمرية، وفي حديقة عائلة الكرمي بعد ساعات العمل في المدرسة.<sup>٢٤</sup> تصف غادة الكرمي، وكانت أصغر طفل في العائلة، مشاعرها تجاه فاطمة بالأومومية: «أردت أن أشعر بأنني وهي ترتبط برابطة خاصة، تختلف عن علاقتها مع شقيقتي وأخي...ولكن، وعلى الرغم من أنني كنت مخلصاً لها، ففي الواقع اهتمت فاطمة بنا جميعاً بالتساوي، وربما لم يكن لديها من بيننا من يحظى بتفضيل خاص. على أية حال، فقد كان لها أيضاً ابنتان، ولكنني كنت لا أقيم لهما اعتباراً لأنني نظرت لها باعتبارها حصراً لي». <sup>٣٥</sup> توسّعت مشاعر المودة التي ظل أطفال المدينة هؤلاء يحملونها لهؤلاء النسوة القرويات، اللواتي اعتنن بهم، بل وفي كثير من الحالات بقين معهم إلى مرحلة البلوغ اللاحقة، لتحمل أيضاً مشاعر من الاحترام والتقدير لعادات العمل واللباس عند الفلاحين الفلسطينيين.<sup>٣٦</sup>

لقد أدت الهجرة إلى المناطق الحضرية والريفية خلال فترة الانتداب البريطاني إلى تجارب جديدة للأطفال الذين سافروا مع عائلاتهم أو وحدهم إلى خارج أماكن إقامتهم. كما وطّور أطفال المدينة الذين خرجوا إلى القرى لفترات من الزمن طرقاتاً أخرى للحياة، وبصفة خاصة، للطبيعة،<sup>٣٧</sup> وبالنسبة للأطفال الذين هاجروا إلى القدس لأسباب تتعلق بالعمل أو الدراسة، فقد شكلت المدينة جزءاً كبيراً من تجربتهم الحياتية خلال فترة بلوغهم سن الرشد، وخصوصاً بالنظر إلى الأحداث التي وقعت أثناء إقامتهم فيها. وقد أسفرت احتكاكات ولقاءات هؤلاء الأطفال مع أشخاص من أماكن أخرى في فلسطين،

٢٤ Ghada Karmi, In Search of Fatima (London: Verso, 2002), 15-18.

كانت لقرية المالحه مساحات واسعة من الأراضي وقد اعتاد القرويون جلب منتجاتهم الزراعية بشكل منتظم إلى القدس لبيعها. احتل الإسرائيليون القرية في العام ١٩٤٨ وأفرغت من سكانها على دفعتين. نيسان/ أبريل. وتموز/ يوليو. بعض المباني القديمة لا تزال قائمة. ولا يزال ممكناً مشاهدة مئذنة المسجد على قمة التل. المالحه اليوم هي إحدى ضواحي القدس الإسرائيلية. تقع رامات دانبة إلى الشمال والغرب من القرية. وتقوم على مزارع القرية. من بين بنايات أخرى. مركز المالحه التجاري (مول) (كاتبون المالحه). أنظر:

Walid Khalidi, ed. All that Remains (Washington, D.C.: Institute of Palestine Studies, 1992), 303-306.

٣٥ Karmi, In Search of Fatima, p. 25.

٣٦ تمّ التعبير عن هذه المشاعر في كنب غادة الكرمي وجون ملكون روز وهالة السكاكيني:

Karmi, In Search of Fatima. Rose, Armenians of Jerusalem and Sakakini Jerusalem and I.

٣٧ راجع على سبيل المثال السير الذاتية لكل من: جون ملكون روز. هالة السكاكيني. وسيرين الجسبيني شهيد.

يدفعون أيضاً ضرائب للحكومة، والتي تلقت وزارة التربية والتعليم من خلالها تمويلها)، لا سيما في ضوء الأعداد الهائلة من الأطفال الذين تقدموا بطلبات للدراسة، ولكن تم رُدُّهم على أعقابهم، فإن إعادة تقييم جذرية للقول بأن بريطانيا كانت هي التي قدّمت ووفّرت التعليم للعرب الفلسطينيين أصبحت ضرورية.<sup>٤٥</sup>

مع ذلك فقد كان الوضع في القدس مختلفاً عن فلسطين ككل، وذلك لأن نسبة الأطفال الذين تعلموا في المدارس العامة كانت منخفضة نوعاً ما. ولأنها كانت مركزاً لمشاريع التبشير المسيحي والهجرة اليهودية، وبسبب التحولات في أنماط التعليم في السنوات الخمس والسبعين السابقة، فقد أنشئت المدارس من كل شكل وحجم، ومن قبيل كل تبعية (دينية أو علمانية). كانت القدس مع الأربعينيات من القرن العشرين مشهورة في شرق البحر المتوسط بتقديم تعليم خاص عالي الجودة للأطفال من فلسطين ومن البلدان المحيطة بها، وبالإضافة إلى ذلك، فقد وفّر نظام التعليم الحكومي في القدس فرصاً للطلاب المتفوقين من جميع أنحاء فلسطين للتميّز، سواء في المدرسة الرشيدية أم في الكلية العربية، والتي كانت توفر تعليماً لمدة سنتين بعد المرحلة الثانوية، وكانت الكلية تمنح شهادة التأهيل للمعلمين، وهو أعلى مستوى من التعليم الذي كان متاحاً لغير

في الوفاء بهذا التعهد خلال تلك السنوات الأربع، بل في الواقع خلال أي وقت آخر من وجودها، وقبل نهاية عهد الانتداب كان العدد التقديري للطلاب المحتملين ٣٠٠,٠٠٠، ولكن تم فعلياً تسجيل ٩٧,٤٠٠ طالب فقط، وهم من كان يواظب على الذهاب إلى المدارس.<sup>٤٦</sup> تشير الإحصائيات وتقديرات الحكومة بوضوح إلى أنّ فشل الحكومة في إجازة المزيد من المعلمين أو إنشاء المزيد من المدارس كان السبب في هذا الوضع، فقد كان واضحاً أنّ رغبة الأهالي والطلاب المحتملين في الإقبال على التعليم لم تكن قليلة،<sup>٤٧</sup> وعلى سبيل المثال:

- فقد سجّل في عام ١٩٣٨، ١١,٥٥٢ تلميذاً عربياً فقط من مجموع ٢٣,٠٣١ طفلاً تقدموا بطلبات.
  - وفي عام ١٩٣٩، قبلت طلبات ١٣,٢٢٢ تلميذاً من مجموع ٢٥,٤٨٨ طلباً.<sup>٤٨</sup>
- لقد تم الاحتفاظ بالإحصاءات للمدارس في كلا المدن والقرى، وعام ١٩٤٤، تم قبول ٥٤٪ فقط من مجموع المتقدمين لمدارس المدينة (٤٧٢١ من ٨٧١٦)، وتم قبول ٦٩٪ للمدارس في المناطق الريفية (٩٥٧٤ من أصل ١٠١٣٧٨٩).<sup>٤٩</sup> ونظراً لدور المجتمع العربي الكبير في تمويل تعليم أطفاله (في الوقت الذي كان العرب

اهتماماً خاصاً وأطلقت خطة ستدفع الحكومة بموجبهما تكلفة المعلم لأية قرية من شأنها أن تقوم بتقديم مبنى المدرسة... وعندما قدم العرض في كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٠، قامت منافسة حادة للحصول على المعلمين والمنح التي كانت متاحة. لمدة ثلاث سنوات كانت تفتح مدارس جديدة في القرى بمعدل أكثر من واحدة في الأسبوع. ثم تلت فترة من التشفير المالي الشديد اضطرتنا لوقف مزيد من التوسع»  
Viscount Samuel, *Memoirs* (London: Cresset Press, 1945), 163, quoted in Tibawi, *Arab Education*, 156).

٤١ Tibawi, *Arab Education*, 171.

٤٢ يعلق كتاب مسح فلسطين (١٩٤٦) *A Survey of Palestine* (Vol II: 638) بأن التعليم في فلسطين ليس إجبارياً ولا هو عالمي. ولكنه سيحقق اقتراباً من مستوى عالمي طوعي إذا توفرت مقاعد للدراسة.

comments that «education in Palestine is neither compulsory nor universal but would achieve a near approach to voluntary universality if school places were provided.» (Vol II: 638).

٤٣ Tibawi, *Arab Education*, 165-166 citing the *Annual Report* for 1938-39.

٤٤ *A Survey of Palestine* 1946, II: 648-650. For more detailed discussions of this issue see Tibawi, *Arab Education*, 171 and 270, Davis, «Commemorating Education» pp. 4-5, and Abdulqadir Mohammad Yousuf, «The British Educational Policy in the Arab Public Schools of Palestine during the Mandate» (Ph.D. diss., Indiana University, 1956).

٤٥ عادةً ما تأخذ دائرة التربية والتعليم في حكومة الانتداب البريطاني الكثير من الفضل لتوسيع نطاق التعليم في فلسطين. ومع ذلك، فإن توسيع التعليم في المناطق الريفية كان يقوم على توفير القرى للمبنى وللأوامر ومعدات المدارس. في حين كان على الحكومة توفير المعلم ودفع راتبه. رغم هذه المعطيات. فإن المساهمة الكبيرة من قبل القرويين نحو بناء التعليم في مجتمعاتهم لم يتم معالجتها بشكل كاف في أي من الدراسات حول التعليم في ظل الانتداب بعد. على الرغم من الطيباوي وغيره ناقشوا هذه المسألة بإيجاز. في الواقع. فإن الأدلة الإحصائية تكشف عن مساهمة القرويين الكبيرة في تعليم أطفالهم. على سبيل المثال. « جمع سكان القرى العربية من نيسان/ أبريل ١٩٤١. وحتى نهاية آب/أغسطس عام ١٩٤٥. مبلغ ١٣٠٠٤٨٠ \$ لأغراض تعليمية. أنفق من هذا المبلغ ٤٨٥٥٨٠ \$ على المباني المدرسية. وخلال هذه الفترة. أنفقت الحكومة المركزية فقط مبلغ ٩٤٨٨٠ \$ على مباني مدرسة القرية. ... وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٤٦ كان هناك ٣٤٦ معلماً في المدارس العامة من بين ما مجموعه ٢١٥٦ معلماً دفعت رواتبهم السلطات المحلية في القرى والبلدات. بالإضافة إلى ذلك فإن العديد من بيوت طلبة المدارس الابتدائية والثانوية كانت تحت إشراف ورعاية الأهالي. راجع:

Yousuf, «British Educational Policy», 130-1, citing Matthews and Akrawi, *Education*, 223.

علاوةً على ذلك فإنه يظهر من الإحصاءات أنّ أقل من نصف المبلغ الذي جمعه القرويون للأغراض التعليمية قد استخدم للمباني. بيد أنه ليس من الواضح كيف تمّ صرف مبلغ الـ ٨٠٠٠٠٠ دولار المتبقي.

العربية (إن لم تكونا لغة التعليم الأساسية).

**الجدول ٢: عدد المؤسسات التعليمية  
(الخاصة والعامّة) وعدد الطلاب من الجنسين  
في القدس عام ١٩٤٥**

نوع المدرسة	عدد المدارس	إناث	ذكور	المجموع
مدارس حكومية عربية	١١	١,٨٦١	١,٩٠٠	٣,٧٦١
مدارس حكومية يهودية	٣٠	٥,١٨٨	٤,٠٤٣	٩,٢٣١
مدارس مسيحية خاصة	٢٨	٣,٥٥٣	٤,٣١١	٧,٨٦٤
مدارس يهودية خاصة	٦٩	٥,٣٩٠	٦,٦٣٠	١٢,٠٢٠
مدارس إسلامية خاصة	٧	٢٨٠	١,١٠١	١,٣٨٠
<b>المجموع</b>	<b>١٥٥</b>	<b>١٦,٢٧٢</b>	<b>١٧,٩٨٥</b>	<b>٣٤,٢٥٦</b>

المصدر: مكتب التعليم لشهر كانون الأوّل/ ديسمبر ١٩٤٥، نقلًا عن عارف العارف، المفضّل في تاريخ القدس، ص ٤٤٦.

يبين الجدول أنه لم يكن لدى السكان الفلسطينيين (باستخدام تصنيف فئات المدارس بين الحكومية العربية والمدارس الخاصة المسيحية والإسلامية) فقط المزيد من المدارس الخاصة عن المدارس الحكومية، بنسبة أربعة أضعاف، ولكن أيضاً قامت المدارس الخاصة بتعليم أكثر من ٦٠٪ من مجموع الطلاب الكلي.

على أية حال، وعلى الرغم من الاعتقاد الحقيقي أو المتوهم بتفوق التعليم المدرسي الخاص، فقد تطلب الالتحاق بالمدارس الخاصة دفع الأقساط المالية، وبالتالي فإن هذه المدارس كانت بعيدة عن متناول الكثير من سكان القدس. وفي حالة المدارس الحكومية، فقد كان مطلوباً دفع مبلغ صغير، الأمر الذي كان صعباً على بعض الطلاب. يذكر محمد زهير النمرّي أنه حضر مدرسة [حكومية] حديثة للبنين، تدعى العمرية. ... لقد

اليهود في فلسطين.<sup>٤٦</sup> ومع ذلك، كانت المدارس الحكومية الأساسية للبنين والبنات قليلة، وأقل من المعايير التعليمية المقبولة. وبحلول عام ١٩٤٥، كانت هناك ١٥٥ مدرسة في القدس. وضمت إحدى عشرة مدرسة عربية حكومية ١٩٠٠ طالباً و ١٨٦١ طالبة، وكانت السبع مدارس الخاصة الأخرى مدارس إسلامية ضمت (١١٠١ طالب) و (٢٨٠ طالبة). وقد فتحت منظمات مسيحية أخرى ثمانين وثلاثين مدرسة ضمت ٤,٣١١ طالباً و ٣,٥٥٣ طالبة، في حين ضمت الثلاثون مدرسة حكومية للطلاب اليهود ٤٠٤٣ من الذكور و ٥١٨٨ من الإناث، وضمت تسع وستون من المدارس اليهودية الخاصة ٦٦٣٠ طالباً و ٥٣٩٠ طالبة. وقد وظفت هذه المدارس ٩٤٦ معلماً و ٨٥٠ معلمة.<sup>٤٧</sup>

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود أقسام أخرى داخل النظام المدرسي الحكومي، ففي حين تمتعت الجالية اليهودية باستقلال ذاتي كامل تقريباً في إدارة نظام مدارسها الخاصة والحكومية على حد سواء، فقد خضعت المدارس الحكومية العربية لسلطة مباشرة وثيقة من دائرة التربية والتعليم، والتي وجّهت جميع جوانب التعليم في المدارس الحكومية العربية.<sup>٤٨</sup> لقد أدّى هذا الأمر إلى قيام العديد من الصراعات داخل إدارة التعليم، وأيضاً بين المديرين البريطانيين والفلسطينيين الذين كان عليهم تنفيذ البرامج التي وضعها البريطانيون. درّست المدارس الخاصة في المقام الأول إما بلغة أجنبية مثل الإنجليزية أو الفرنسية أو الروسية، مع دورات تكميلية في لغة المجتمع (مثل العربية أو العبرية)، أو أنها درّست باللغة الأساسية للمجتمع (مثل العربية، الأرمنية، اليونانية، أو العبرية)، وأضاف لغات أخرى، أولاً اللغة الانكليزية أو

٤٦ لم تكن هناك معاهد للتعليم العالي في فلسطين في الفترة ما قبل الانتداب البريطاني. وضعت الجالية اليهودية بمساعدة من البريطانيين خطة لإنشاء الجامعة العربية في عام ١٩١٨. وتم افتتاحها فعلاً. راجع حول هذا الموضوع:

[http://www.huji.ac.il/huji/eng/aboutHU\\_history\\_e.htm](http://www.huji.ac.il/huji/eng/aboutHU_history_e.htm).

(تمت زيارة الموقع في ١٥ تموز/ يوليو ٢٠٠٤). كان التعليم في الجامعة مقتصرًا فقط على اليهود.

قدّم هربرت صموئيل، المندوب السامي الأول على فلسطين، وعوداً مماثلة من أجل إنشاء جامعة عربية (لتحويل الكلية العربية إلى جامعة). ولكن لم تنفذ هذه الخطة.

٤٧ عارف العارف، المفضّل في تاريخ القدس، ص. ٤٤٦. وقد أخذت الإحصاءات من سجلات دائرة التعليم المتعلقة بكانون الأوّل/ ديسمبر ١٩٤٥.

٤٨ ترسخت الانقسامات بين المجتمعين العربي واليهودي منذ وقت مبكر من عهد الانتداب البريطاني. وذلك عندما سمح البريطانيون أن تكون لغة التدريس في المدارس الحكومية بالعربية للعرب وبالعبرية لليهود.

بدأت هناك المرحلة الابتدائية حتى الصف السابع، ذهب أخي الأكبر وأخي الأصغر أيضا هناك؛ أما أخواتي فقد ذهبن إلى مدرسة مختلفة لأنه كان يتم فصل البنات عن البنين. كانت هناك مدرسة للبنات في المأمونية، ومدرسة أخرى في باب الساهرة. كان هناك عدد قليل من المدارس التبشيرية الخاصة، ولكن هذه كانت لأبناء وبنات الأغنياء فقط. لقد جئت من عائلة فقيرة جداً، وقد اعتاد التلاميذ على دفع ما يعادل أربعة دولارات في السنة، ولكن حتى هذا المبلغ لم نستطع دفعه. كنت جيداً في المدرسة، وحصلت على درجات عالية، وكنت دائماً أحصل على ورقة من مختار الحي تفيد بأننا فقراء، فكانوا يعذروننا من دفع القسط.<sup>٤٩</sup>

لم يرغب بعض الناس بإرسال أبنائهم إلى المدارس الخاصة الأكثر تفوقاً، وذلك بسبب طبيعة التعليم، والذي غالباً ما كان مسيحياً. يصف صبحي غوشة النقاش الذي جرى في عائلته حول أية مدرسة في القدس سيتم إرسال الأولاد إليها بعد أن أغلقت عام ١٩٣٦ المدرسة الإبراهيمية، والتي كانت تحظى باحترام كبير:

وكان قرار جدي الحاج سعيد رحمه الله، الذهاب إلى مدارس الحكومة بالرغم من ضعف مستوى التعليم فيها، وعدم وجود صفوف ثانوية أو عليا في تلك الفترة تمكن الطلاب من الاستمرار للحصول على الشهادات العليا.. طب هندسة.. إلخ. وبقيت المدارس الأجنبية هي المؤهلة الوحيدة لهذا النوع من الدراسة. [...] حدثت مناقشات عدة بعد صدور قرار الحاج سعيد بإرسالنا إلى المدارس الحكومية. فقد اعترضت والدتي، أمّ الله في عمرها، على هذا القرار وطبعاً لم تستطع مواجهة الجد بهذا الاعتراض، ولكنها نقلته للوالد وأبدت وجهة نظرها قائلة أنّها تريد لي أن أتعلم الطب وأن أصبح طبيباً مشهوراً، مثل الدكتور حسام أبو السعود في القدس الذي كان طبيباً إنسانياً محبوباً ومشهوراً بمساعدته للفقراء والمعوزين، [...] واستمر النقاش ساعات وأياماً حتى اقتنع الوالد ومن ثم حاول إقناع الجد بهذا الأمر، وتكرار المحاولات، والحب الخاص الذي كان جدي يقدقه عليّ، جعلاه في النهاية يوافق على تسجيلي في مدرسة المطران في القدس.<sup>٥٠</sup> يصف غوشة المدرسة الإبراهيمية بأنها كانت أكثر وطنية بكثير من مدرسة [المطران] سانت جورج، كما يصف معلمي الإبراهيمية بكونهم قادة الحركة الوطنية في القدس، والدليل الذي يورده على هذه الروح الوطنية أن الإبراهيمية كانت تعقد أيام ميدانها السنوية تحت

رعاية الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس، في حين أن المدارس الأجنبية كانت تعقد أيام ميدانها تحت رعاية المندوب السامي البريطاني. يستذكر غوشة من موقعه الجديد في مدرسة المطران سانت جورج قراءة صلاة الرب كل صباح، وقراءة أناجيل العهد الجديد وأسفار العهد القديم. إن استذكار غوشة للتعليم في طفولته يؤكد على استفادته من مستويات التعليم العالية لمدرسة [المطران] سانت جورج، شقّ غوشة في نهاية المطاف طريقه إلى أن أصبح طبيباً، ولكن أيضاً هناك محادثات مع البيئة السياسية المقيدة، التي وجد نفسه فيها، ويؤكد شعوره بغياب الألفة مع الطقوس المسيحية اليومية العلنية.

لقد تم إرسال الأطفال الفلسطينيين إلى المدارس في القدس من القرى المحيطة بها، ومن كل أنحاء فلسطين. نشأ سامي خوري في نابلس، ولكن تم إرساله إلى القسم الداخلي في مدرسة [المطران] سانت جورج في القدس لمدة سبع سنوات.<sup>٥١</sup> لقد عاد سامي بعد ذلك إلى القدس لممارسة الطب في مستشفى الحكومة بعد تخرجه من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٤٦. يذكر سعيد أبو الريش أن ثلاثة من أبناء مختار قرية العيزرية درسوا في القدس القريبة من قريتهم، وكما يصف سعيد أبو ريّش، فقد تمّ بهذا تجنّب هؤلاء الأبناء الثلاثة الذهاب للعمل فور الانتهاء من المدرسة المحلية في قريتهم.<sup>٥٢</sup> لقد سمح التعليم الخاص المقدم للأطفال زيادةً في فرصهم للعمل، سواء المأجور أم الوظائف الحكومية، في العالم الجديد الذي عاشته فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

قدّمت حكومة الانتداب المنح الدراسية لأولاد القرى المتفوقين للدراسة في الكلية العربية، كلية تدريب المعلمين في القدس. لقد ركّز التعليم في مدارس القرى العربية، كما صمّمه المسؤولون البريطانيون، على القراءة والكتابة والمهارات الزراعية مثل الفلاحة وتربية الحيوانات.<sup>٥٣</sup> عندما ذهب الطلاب القرويون للحصول على تعليمهم في المدينة، سمحت لهم المواضيع التي درسوها بأن يصبحوا شيئاً آخر غير عمال يدويين، أو مزارعين، أو حرفيين، مع ذلك، وفي الوقت نفسه، فقد جهّزتهم للعمل في المهن التي من شأنها أن تكون ذات فائدة لا تذكر في قراهم عند عودتهم إليها، إلا إذا أصبحوا معلمين في المدارس.

<sup>٥١</sup> Dr. Sami Khoury's memoirs from 1922-1940, Nur Sati, ed <http://www.jerusalemmites.org/memoirs/men/6.htm> (accessed July 21, 2004).

<sup>٥٢</sup> Said Aburish, *Children of Bethany* (London: IB Taurus, 1988).

<sup>٥٣</sup> Tibawi, *Arab Education*, pp. 79-80.

<sup>٤٩</sup> مفايلة مع محمد زهير النمرى أجريت في عمان، الأردن بتاريخ ١ تموز/يوليو ١٩٩٩.

<sup>٥٠</sup> صبحي غوشة، شمسنا لن تغيب، دن، ١٩٨٨، ص ٢٣-٢٥.

لقد مثّلت قصة فتى من قرية مسكة ماذا كان يعني خيار الذهاب إلى القدس لعائلته:

بعد الحرب الثانية أجا أحمد سامح الخالدي، كان مفتش بالمعارف، أجا على بلدنا من ضمن جولة في كل البلاد عشان ينقّي طلاب يودوهم في بعثات.

سأل الخالدي الطالب بعض الأسئلة، بما في ذلك نسب النبي محمد، وكيفية تقسيم عشرة جنهات بين أربعة أشخاص. وبعد أن أجاب الطالب بشكل صحيح، قال [الخالدي]: بس. وكتب يجب على هذا الطالب أن يمنح إلى القدس، وكان عمري بيحي ١٠، ١٢ سنة، قرايبي زلوا وبدهمش يودوني، و أمي تقول الله أكبر، ابني يروح على القدس! وكنت وحداني لأمي وبدهاش إياني أبعد عنها. أجت اترجت المفتش الخالدي عشان ما يوخذنيش.<sup>٥٤</sup>

تمثل حقيقة أن الأم والأسرة لم يريدوا للطفل أن يذهب أواصر الأسرة والبيت، والتي عنت لهم أكثر من فرصة مجردة للتعليم في مدينة بعيدة. ومع ذلك فقد قبلت عائلات فتیان آخرين عديدين مثل هذه العروض. تبين قائمة الخريجين وحاملي الشهادات من الكلية العربية في عام ١٩٣٢ أن عشرة من السبعة والثلاثين طالباً كانوا من قرى فلسطين، في حين كان هناك ثلاثة من القدس، بينما كان الأربعة وعشرون الباقون من مدن يافا وعكا وبترا السبع والخليل وغزة وجنين واللد والناصرة وطبريا.<sup>٥٥</sup> لقد قدمت الكلية العربية أعلى مستوى من التعليم للعرب الفلسطينيين داخل فلسطين،

٥٤ شريف كناعنة وبسام الكعبي. مسكة (بيروت: مركز أبحاث جامعة بيروت. ١٩٩١. ٥١-٥٢. كانت مسكة قرية تبعد قرابة ١٥ كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من مدينة طولكرم. وعلى بعد قرابة ١٠ كم إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط. وقد طرد سكانها في نيسان/ أبريل من عام ١٩٤٨. وتم تدمير القرية من قبل الصندوق القومي اليهودي في حزيران/ يونيو من العام نفسه. ما زالت المدرسة المؤلفة من غرفتين موجودة. وكذلك المسجد. وتزرع في أراضي القرية بساتين الحمضيات. بالقرب من مكان القرية تقوم الآن التجمعات السكانية الإسرائيلية: سديه مشميرغ. واربرت. ورامات هكوشف. وكلها كانت هناك قبل عام ١٩٤٨. راجع:

Walid Khalidi, ed. *All that Remains* (Washington, D.C.: Institute of Palestine Studies, 1992) 558-9.

٥٥ خمس وسبعون عاماً منذ تأسيس الكلية العربية في القدس. عمان: البنك العربي. ١٩٩٥. ٦٨-٦٩. كان توزيع طلاب المدن كالتالي: ثلاثة طلاب من يافا. ولا أحد من حيفا. اثنان من عكا. واحد من بترا السبع. أربعة من الخليل. خمسة من غزة. اثنين من جنين. واحد من اللد. ولا أحد من الرملة. اثنان من الناصرة. واحد من طبريا. أما طلاب القرى. فقد جاء عشرة طلاب من عصيرة الشمالية (نابلس). عورتا (نابلس). علار (طولكرم). زيتا (طولكرم). الطيبة (طولكرم). سفارين (طولكرم). بدرس (الرملة). وبيت لحم. وشقيفان من الجمامة. من قضاء بئرالسبع.

وبالتالي وفّرت القدس فرصاً للتقدم في مجال التعليم، فضلاً عن تعليم مهن لم تكن لتوجد لو بقي هؤلاء الطلاب في قراهم ومدنهم الأصلية؟<sup>٥٦</sup> وهكذا فقد شجّع النظام ألمع الأطفال القرويين على مغادرة قراهم والعمل في المدن.

جرى تعليم البنات في المدن، على عكس القرى، بين نسبة مئوية عالية نسبياً من السكان. كان من غير المؤلف في أوائل القرن العشرين بالنسبة للفتيات حين يصلن سن البلوغ مواصلة كثير مما كنّ يفعلنه في الماضي، خذ على سبيل المثال حالة وصال الجلاّد، والتي ولدت تقريباً عام ١٩١٨ بالقرب من طريق باب الساهرة، حين تقارن تجربتها التعليمية مع الفتيات في الأوقات الحالية:

ذهبت للمدرسة، ولكن ليس لفترة طويلة، أنهيت الصف السادس فقط. ذهبت إلى مدرسة حكومية في البلدة القديمة، وكانت إحدى معلماتي تدعى ألكسندرا، لقد كنت أعرف معلماتي بشكل جيد، وكنت أحبهن وكنت يحببني. لقد وضعوا خلال الانتداب البريطاني مدرّسات فقط في مدارس البنات، ولم يكن فيها مدرسون رجال. لقد كان الناس أكثر تحفظاً في ذلك الوقت، ولم يكن ممكناً القيام بوضع معلمين رجال لتعليم الفتيات، لم يعد هذا مهماً الآن، سواء أكان المعلمون رجالاً أو نساءً. [...] عندما تذهب إلى المدرسة للمرة الأولى، كنت تدرس جميع الموضوعات العادية: التاريخ والجغرافيا والرياضيات والنحو... إنهم لم يعلمونا اللغات باستثناء اللغة العربية، لقد كان في العام الأخير حين تركت المدرسة عندما بدأ تدريس اللغة الإنجليزية. لذا فأنا لم أتعلم اللغة الإنجليزية. [لقد تركت المدرسة لأنهم] لأنهم لم يدعوا البنات «يكبرن» في المدرسة، في أقرب وقت تصبح الفتاة بالغة يضعونها في المنزل. وهكذا مكثت بعد ذلك في المنزل مع والدي والعائلة. في بعض الأحيان كان الأخ أو شخص ما يأخذنا للخارج في رحلات أو شيء من هذا القبيل. لكننا في معظم الأوقات بقينا في المنزل، وكنا نقوم بمساعدة عمّاتنا.<sup>٥٧</sup>

تنسق تجربة الجلاّد في ذلك الوقت مع تجارب العديد من الفتيات، وبالأخص المسلمات، ولكن أيضاً بعض المسيحيات واليهوديات، اللواتي أرسلن إلى المدرسة لتلقي التعليم، ولكن عندما وصلن إلى سن البلوغ، أعدن

٥٦ بينما كان من المفترض أن تصبح الكلية جامعة كما وعد المندوب السامي الأول البريطاني هربرت صموئيل. إلا أن ذلك لم يحصل أبداً.

٥٧ مقابلة مع واصله الجلاّد. أم ربحي. أجريت بالقدس بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٩٩.

إلى بيوتهن للاستعداد ليكنّ زوجات وأمّهات. في حين أنّ ظاهرة إنهاء تعليم الفتيات في وقت مبكر من أجل زواجهن يتضمّن بالتأكيد بعداً طبقياً (ذلك أنّها على الأرجح كانت أكثر شيوعاً بين الطبقات الأقل ثراءً)، وهي متصلة أيضاً بالفرص المتاحة للفتيات بعد الانتهاء من المدرسة الثانوية. وحيث أنّ المزيد من المعاهد وكليات التدريب والجامعات سمحت للفتيات للدخول، فقد فتحت لهنّ فرص العمل على أساس مهارتهن، كما ارتفع عدد الفتيات اللواتي بقين في المدارس حتى النهاية وتخرجن. إنّه من المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه في حين أن المدارس الخاصة المسيحية واليهودية والمدارس الحكومية استوعبت أعداداً متساوية تقريباً من الفتيان والفتيات، كانت المدارس الإسلامية الخاصة كلها تقريباً للفتيان.<sup>٥٨</sup> لقد حضرت الفتيات المسلمات من الطبقات الأغنى العديد من المدارس المسيحية الخاصة في القسم الخارجي وفي القسم الداخلي على حدٍ سواء. كان والد زهرة الشهابي يعمل مهندساً في مسح الأراضي لدى حكومة الانتداب، وبالتالي فقد كان يعيش وعائلته في مناطق مختلفة من فلسطين، لكنهم كانوا جزءاً من عائلة ممتدة تسكن في القدس. تستذكر زهرة الشهابي تعليم والدتها من قبل الراهبات:

درست أمي مع الأخوات السالزيان في القدس، ولهذا فقد تمكنت من التحدث بالايطالية مثل اللغة العربية. وفي عام ١٩٣٤، عُرض عليها مكان في رحلة إلى روما ترعاها الراهبات، وتصوري في ذلك الوقت كم كان والدي وجدي متحررين ومنفتحين. لقد حصلت على عرض أولاً عام ١٩٣٤، ولكنها رفضت الذهاب. فقد كانت تريد أن تذهب، ولكن ليس وحدها، وقد قال لها جدي: يجب عليك الذهاب، ولكن كما تعلمين لم يكن ذلك سهلاً [بمعنى أنّه لم يكن سهلاً لفتاة أن تسافر وحدها]. ثم أنّها أصبحت مخطوبة في عام ١٩٣٥، وقد قال لها والدها: «الآن الوضع ليس في يديك، فهناك شخص آخر له أن يقول نعم أو لا.» والدي كان منفتحاً جداً، وقال لها سوف أسمح لك

٥٨ هناك عدد من العوامل يمكن أن تكون مسؤولة عن هذا. الأكثر أهمية. ربما هو أن هذه المدارس قدمت نوعاً من تعليم «الكتّاب» التقليدي وللبنين فقط. أو للتدريب الديني للطلاب الذي قدمته المدارس الدينية لهم ليصبحوا مسؤولين دينيين. الأمر الذي من شأنه أن يستبعد بالتالي الفتيات. وقد يكون السبب أيضاً أن بعض هذه المدارس كانت دوراً للأولاد الأيتام من أجل تعليمهم مهارات مفيدة. ولكن في النهاية، وبالنظر إلى العدد الأكبر من الأولاد في المدارس بشكل عام. فإن الإحصاءات تشير إلى أن العائلات المسلمة والسلطات الإسلامية التي أدارت مدارس المسلمين الخاصة رأّت أنه من غير الضروري تعليم البنات. و/أو رأّت أن لتعليم البنين الأولوية على تعليم البنات.

بالذهاب، وهذا هو الوقت الذي بدأت فيه والدتي تحب والدي، والدها لم يشعر أنه يمكن له السماح لها بالذهاب، ولكنّ خطيبتها سمح لها. لهذا، فقد ذهبت في عام ١٩٣٥ إلى روما، ويوجد لدينا صور من الرحلة: لقد رأّت البابا وذهبت إلى برينديزي، استقلت القطار، لدينا قصص وصور من القارب، وما كتبتّه عن هذه الرحلة إلى والديها، [نعرف] ماذا أكلت، [بل نعرف] كل شيء [عمّا فعلته في رحلتها]. كان هذا في ذلك الوقت شيئاً معتبراً حقاً. لن تصدقني الصور، وكيف كانوا يرتدون الفساتين القصيرة والقبعات. لقد كان شيئاً مختلفاً.<sup>٥٩</sup>

وفي حين أن بعض الذين ليسوا مطلعين على أحوال القدس أو فلسطين في المناطق الحضرية خلال فترة الانتداب، وإلى حد ما حتى في الوقت الحاضر، سيستغربون أنّ فتاةً من أسرة مسلمة تدرس مع الراهبات الايطاليات وتذهب لزيارة البابا في روما، إلا أنّ هذه الحالة ليست فريدة. فإنّه في الواقع، كان كلما تمّ إنشاء مدارس تبشيرية، قد تمّ التأكد من حضور غير المسيحيين، يعود السبب في جزء كبير منه لمستوى التعليم في هذه المدارس، وكذلك لتوفر فرصة لتعلم اللغات الأجنبية التي تقدمها هذه المدارس.<sup>٦٠</sup>

لقد صاحب الزيادة في عدد المدارس والتلاميذ خلال هذه الفترة إعطاء أولوية عالية داخل الأسرة للتعليم، وكما كان يحدث في البلدان الأخرى في جميع أنحاء العالم، فقد كان هناك حاجة في هذا المجتمع المتغير بسرعة إلى الرجال والنساء المتعلمين، وذلك لشغل أنواع جديدة من الوظائف الإدارية والفنية والصناعية والمسؤوليات الأسرية. وفي حالة أطفال المسلمين، فإنّ تعليمهم المبكر كان يتفق في كثير من الأحيان مع الفرص التي كانت المعروفة لوالديهم، مثل وظيفة في الكتّاب أو معلم خاص، ولكن مع تغير الزمن والثروات، فقد أتيح للأبناء فرص للدراسة في مكان آخر، كما استغل الآباء أنواعاً أخرى من التعليم لوضع أطفالهم في مسارات ناجحة. يستذكر أمين حافظ الدجاني حضوره الدروس في كتّاب، والنجاح القليل الذي حققه:

ذات يوم من أيام ١٩٢٧ خرجت مع أمي قاصدين

٥٩ مقابلة مع زهرة الشهابي (أم) أجريت في الثالث من تشرين أول ١٩٩٩ في عمان. الأردن.

٦٠ لقد سمحت السلطات العثمانية للمسلمين بحضور مدارس تديرها جهات غير إسلامية في نهايات القرن التاسع عشر. أنظر:

*Repression and Liberation: Palestinians* (London: Sarah Graham-Brown, Education, World University Service, 1984), and Davis, «Ottoman Jerusalem» for a brief discussion of education in Ottoman times.

كَتَّاب أم بدوي القريب من بيتنا الكائن في حي الثوري في مدينة القدس. أفهمني أهلي أن الكَتَّاب من أجل حفظ القرآن و تعلم القراءة و الكتابة و لم أكن أدر شيئاً عن الكتاب. [...] ثم أخذت الشيخة تنادي ولداً ولداً بأسمائهم وتسالهم أين وصلوا في حفظ القرآن الكريم، وتسمع لهم وتثني على المجتهد بكلمة عفارم، وهي كلمة تركية معناها «أحسنت»، و تهدد الكسول بالعقاب الشديد إذا لم يحفظ سورته في اليوم التالي. [...] قضيت عاماً أو بعض عام في كَتَّاب الشيخة أم بدوي حفظت خلالها بعض السور غيباً، وحفظت حروف الهجاء و لكنني لم أتعلم كتابتها، وبعد أن دخلت في السنة السادسة، ذهبت إلى مدرسة الحكومة في الصف التمهيدي، أي الصف الأول.<sup>٦١</sup>

وبينما يزعم الدجاني أنه لم يتعلم أي شيء في الكَتَّاب إلا أنه قد وفر له، وقبل أن يذهب إلى المدرسة الحكومية، نقطة انطلاق لمعرفة كيف يكون تلميذاً، وكيف يجلس في الصف. تقول حقيقة أن المعلمة في المدرسة الدينية كانت امرأة، وأن الأولاد تم إرسالهم من قبل أسرهم للدراسة معها، شيئاً عن تقاليد الحياة في المناطق الحضرية فيما يتعلق بالنوع الجنسي (الجندر) وبالعمل والتعليم. وعلى الرغم من القيود المفروضة على التعليم، فإن الصفات الفريدة للتعليم في القدس قد استقطبت انتباه الجميع، وخاصة أولئك الذين درسوا في مكان آخر. يصف جبرا إبراهيم جبرا في سيرته الذاتية، البئر الأولى، معلمينه الجدد عندما انتقلت عائلته من بيت لحم إلى القدس، وبدأ يحضر مدرسة الرشيدية التي كانت تدبرها الحكومة خلال الثلاثينيات من القرن العشرين:

لقد أفرحني أن أجد المعلمين، حتى في ذلك الصف الخامس الابتدائي، من نوع لم أعتد عليه. كان وصفي العنبتاوي يدرّسنا الجغرافيا، يتحدث في أثناء الدرس عن تجاربه في انكلترا وفرنسا ومصر وأقطار غيرها. لا ينظر في الكتاب الذي يدرّسنا منه، و يملي علينا صفحات من المعرفة تبدو أنها تفيض تلقائياً عن علم غزير. كان خريج جامعة أكسفورد، وهو طويل القامة، شديد الأناقة، يضع منديلاً في كَمّه عند المعصم، شديد اللطف، وأحياناً، إذا غضب، شديد القسوة، إذ تلمع

٦١ أمين حافظ الدجاني *جبهة التربية والتعليم ونضالها ضد الاستعمار: البرامج والمناهج والمعلمون والطلاب عبر أربعة عقود*، ص ٤٥-٤٦.

عيناه وراء زجاجتي منظرته الذهبية بما يشبه البرق، فيصمت الجميع فرقاً. كان يتحدث بلغة تتمازج فيها الفصحى باللهجة النابلسية، مؤكداً على «القاف» التي نادراً ما يلفظها المقدسيون، ويسيطر على أذهاننا وخيالنا، ولا أظن أن أحداً يشرده به ذهنه لحظة واحدة عما يقول.<sup>٦٢</sup>

لم يكن انتقال جبرا إلى مدرسته الجديدة في القدس سهلاً تماماً. حيث أن اللغة الإنجليزية لم تكن تقدم في مدارس القرى في نفس الصف الدراسي، أو بنفس وتيرة مدارس المدينة، وكان على الطلاب الذين انتقلوا إلى مدارس المدينة إعادة دراسة الصفوف الأولى التي درسوها في القرية، أو العمل بمشقة واجتهاد إضافيين من أجل مواكبة مستوى اللغة الإنجليزية المطلوب منهم. تتضمن تجربة جبرا التعرض للفحص مرة أخرى، ليس فقط بسبب الاختلاف الواضح في مستوى تعليمه مع مستوى زملائه الجدد. ومن المهم هنا أيضاً هو كيف تكشف القصة عن جهوده الفردية، والتي جعلته ينجح في النظام، الذي كان يمكن له أن يرجعه للخلف. لحظني المعلم غريباً، فتقدمت مني و سألتني من أنا، ومن أين جئت، ثم ألقى عليّ السؤال الذي كنت أخشاه:

«في أي كتاب كنتم تدرسون الإنكليزية؟»

أجبت: «نيو ميشود ريدرز.»

قال: «نعم، ولكن أي جزء؟»

قلت: «الجزء الثالث.»

فهمت: «ها ها! أتعرف في أي جزء نقرأ نحن؟ الجزء الخامس. كيف ستستطيع السير معنا؟ ما رأيك لو عدت إلى الصف الرابع؟»

قلت: «لا، لا، مستحيل، أستاذ.»

قال ملوحاً بيده طويلة الأصابع: «ولكنك لن تستطيع مواكبة هذا الصف في الجزء الخامس.»

فقلت راجياً: «أستاذ، جربني، جربني شهراً واحداً.»

ضحك ياسين أفندي ضحكة جميلة، وقال، متظاهراً بأنه سلم أمره لله: «طيب يا سيدي. نجربك لشهر واحد فقط، وإذا خيبت ظني؟»

أجبت بلا تردد: «أطردني من المدرسة!»

وراح يتمشى بين مقاعد الطلبة، وبلغتنا الدرس

٦٢ جبرا إبراهيم جبرا، *البئر الأولى*. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ١٩٩٣. ص. ٢٣٩. لقد كان جبرا روائياً وشاعراً وفناناً وناقداً فنياً ومدرسا. ولد في بيت لحم عام ١٩٢٠. وحصل على منحة للدراسة في كامبريدج. وعاد إلى فلسطين للتدريس. في عام ١٩٤٨ استقر في بغداد. حيث عاش حتى وفاته عام ١٩٩٤.



الانتداب بتقديره. مع ذلك، فقد كانت محاسن هذه الأنظمة المختلفة مختلفة. يصف جميل طيبة، والذي درس في التراسنطة التي أدارها الآباء الفرنسيون، تجربته على النحو التالي:

على الرغم من أنّ سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين شهدت عدم الاستقرار في جميع أنحاء أرضنا، وكان المجتمع الذي قضيت العقد الأول من حياتي متماسكاً وداعماً ويقدر الأطفال وتعليمهم. ... لقد قضيت إحدى عشرة سنة مثيرة، وغالباً ما كانت صعبة، في كلية التراسنطة. وكان التعليم الذي تلقينته يعتمد أسلوباً بافلوفياً (Pavlovian)<sup>٦٥</sup> في التكيف، والذي كان هدفه إنتاج ابن البلد الكامل، "perfect native"، وهو شخص يحذو حذو سيده، في حين يبقى خاضعاً وتابِعاً له بشكل ملائم. لقد ضمن العقاب العام والإذلال نجاح هذه العملية، وكان نموذج التعليم المثالي الاستعماري يدين ذاته، ولا بدّ من أجل إنتاجه من إيجاد علاقة ذهنية بين "الأجنبي" و"الامتياز"... لقد قطع مال البذور من الغرب شوطاً طويلاً من أجل بناء مرافق تعليمية رائعة لأبناء المستعمرين و/أو أبناء أهل البلد الذين كانوا يخدمونهم، لقد أصبحت هذه المرافق مغانيط جاذبة للعائلات الفلسطينية التي أرادت لأبنائها النجاح في بيئة متغيرة<sup>٦٦</sup>

لقد أصبح الأطفال مبعوثين عن غير قصد من أجل التعبير عن طموحات آبائهم في التقدم والنجاح، وكثيراً ما أرسلوا إلى المدارس لتلقي التعليم في لغات أخرى غير اللغة العربية الأم. يشرح طيبة كيف قامت هذه المدارس [الأجنبية] المرموقة بتعليم الأطفال التقاليد الغربية والكلاسيكية على حساب تعليمهم عن التاريخ والتراث العربي. ترك الشبان الذين تخرجوا من هذه المدارس للتوفيق بين إعجابهم بدراساتهم وبمعرفتهم للتاريخ والأدب الغربي، وبين تجربتهم في المواجهة مع القوات الاستعمارية القمعية في الشرق الأوسط التي حرمتهم استقلالهم السياسي. وفي الوقت نفسه، تمّ تعليمهم اللغات الأجنبية ليكونوا قادرين على التواصل والعمل مع

الجديد، بلفظ انكليزي بدين لم أسمع مثله من قبل. وكان من شأنه أن يفاجأ الطلاب بين يوم وآخر بامتحان تحريري قصير، «كويز»، لم أكن معتاداً عليه. ولكنني لم أتعباً، في الأيام التالية، كما تهيأت لدرسه وامتحاناته.

هل خيّبت ظنه بعد شهر؟ دخل الصف، وأخرج من بين أوراقه قائمة «العلامات»، وهنّ رأسه، وهو يتأملها، ويضحك ضحكة التعجب بصوت خافت، وقال: «يا جماعة، ظلمنا جبراً، فماذا فعل؟ سبقكم جميعاً! علامته عندي هذا الشهر، صدّقوا أو لا تصدّقوا، ٩٥. ويا عبدالله، انتبه! من هو الأول في اللغة الإنكليزية هذا الشهر؟ جبراً... تهانينا!»<sup>٦٦</sup>

لقد درّس جبراً نفسه في وقت لاحق في هذه المدارس نفسها، وأصبح هذا الموضوع من ذكريات الآخرين.

نشأ وجيه بركات في حي دير أبو طور لعائلة ثرية من تجار القماش. لقد جاء من عائلة محافظة ومتدينة، والتي كانت تقدر التعليم ولم ترسل أطفالها إلى المدارس التبشيرية الأجنبية: ذهبت إلى المدرسة العمرية في الطالبية، وأنهيت السابع الابتدائي، ثم توجهت إلى المدرسة الرشيدية بالقرب من باب الساهرة، وأنهيت دراستي هناك، وتقدمت لامتحان شهادة المترك. [...] لقد قام جبراً بتدريس اللغة الإنكليزية [مستوى] A، ودرّسنا الدكتور موسى خوري الأدب الإنكليزي [مستوى] B، وعلمنا الدكتور نقولا زيادة التاريخ الحديث [...] وكان هناك أيضاً الدكتور الحاج مير، وهو كردي أو شيء من هذا القبيل، وكان يحمل الدكتوراه في التاريخ، وكان هناك الدكتور الأشهب الذي علمنا الجغرافيا، كما علمنا الدكتور هنري مطر الإنكليزية أيضاً، وكان في العمرية وانتقل بعد ذلك إلى الرشيدية. وكان هناك أيضاً حسام اشتية، وكان في المدرسة العمرية، وقام بتدريسنا الخط العربي واللغة العربية. جبراً... تعلمنا منه المذهب الإنساني، وليس الفكر المتطرف، أي أن يكون الواحد منفتحاً وأن يستمع إلى أشخاص آخرين، قد تكون مخطئاً، أنت لست دائماً على حق، لذلك كانت بداية تعلمنا لروح الديمقراطية من جبراً، والذي أصبح بعد ذلك مدرساً في العراق.<sup>٦٤</sup>

لقد درّبت النوعية العالية من التعليم في القدس بعضاً من أفضل الطلاب في البلد، ولكن وجود أنواع مختلفة من المدارس أيضاً أدّى إلى توفير فرص التعليم بالنسبة لغالبية الطلاب، غير ما كانت تقوم حكومة

٦٥ نسبة للعالم الروسي إيفان بافلوف (١٨٤٩-١٩٣٦). الذي كان عالم نفس وطبيب وحصل على جائزة نوبل (ملاحظة من المترجم).

٦٦ Jamil Toubbeh, *Day of the Long Night: A Palestinian Refugee Remembers the Nakba* (Jefferson, NC: McFarland & Co, 1998), 68-9.

٦٣ جبراً إبراهيم جبراً. البعث الأولى. ص. ٢٣٦-٢٣٧.

٦٤ مقابلة مع وجيه بركات، أبو ياسمين. أجريت في عمّان بتاريخ ١٥ نيسان ١٩٩٩.

الغربيين وغيرهم، ومع ذلك فإن معاييرهم الاجتماعية كانت لا تزال في نطاق أسره العربية.<sup>٦٧</sup> وفي حين كان هذا ينطبق بشكل خاص على الطلاب في المدارس الخاصة، فقد شكوا حتى الطلاب في المدارس الحكومية تهميشاً مماثلاً لتاريخهم العربي والإسلامي لصالح التعلم عن التاريخ الأوروبي.<sup>٦٨</sup> وبسبب هذا التركيز الأوروبي، فقد غطت المناهج المدرسية الأدب والتاريخ العربي الكلاسيكي فقط، وتعلم الطلاب عن ثقافتهم وعن الوضع السياسي الخاص من خلال الحياة اليومية في القدس بدلاً من تعلمه في الصفوف الدراسية. وفي حين وفرت القدس التعليم الحديث لكثير من الفلسطينيين، فإن الخريجين من مدارسها شغلوا وظائف خارج المدينة، وسافروا خارجها إما للعمل وإما لمزيد من الدراسة، وعندما عادوا إلى المدينة أضافت خبراتهم في الدراسة والعمل خارجها، وحتى خارج فلسطين، لإعادة تشكيلها كمدينة عالمية أكثر من أي وقت مضى.

## القدس باعتبارها مركزاً دينياً

لقد عنى وضع القدس باعتبارها المركز الديني للديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، أنها مركز جذب للعلماء والحجاج من جميع أنحاء العالم، فضلاً عن استضافتها للمناسبات الدينية الهامة. تظهر الأعياد الدينية، الإسلامية والمسيحية على وجه الخصوص، في ذكريات الطفولة الفلسطينية على أساس أنها مناسبات وأوقات خروج للنزهة الأسرية وللاحتفال بالأعياد. استضافت القدس البداية والنهاية من الاحتشاد في احتفالات موسم النبي موسى، وهو احتفال سنوي بذكرى النبي موسى، الذي يقع قبره، وفقاً للمسلمين، في منتصف الطريق بين القدس والبحر الميت.<sup>٦٩</sup> كانت

1٧ Toubbeh, *Day of the Long Night*, pp. 70-76.

١٨ راجع:

Rochelle Davis, «Commemorating Education», pp. 9-11.

١٩ يبدو أنه قد تم تأسيس الضريح من قبل السلطان المملوكي بيبرس في سنة ٦١٨ هجرية الموافقة لسنة ١٢١٩ ميلادية. لأن الكتابة في الموقع تقول ما يلي: «تم بناء هذا المقام على قبر النبي موسى عليه السلام، كليم الله سبحانه وتعالى. بناءً على أمر من جلالة السلطان الفاتح الظاهر بيبرس سنة ٦١٨ للهجرة» (١٢١٩-١٢٧٠ ميلادية). أنظر:

<http://www.jericho-city.org/historical.htm>

تمت مراجعة الموقع بتاريخ ٢٣ تموز/ يوليو ٢٠٠٤. مع ذلك، يذكر المؤرخ الهروي (ت ١١١ هجرية، ١٢١٤ ميلادية)، أنه قام بزيارة قبر النبي موسى عليه السلام عام ١١٧٣ م. يعتقد اليهود والنصارى أن النبي موسى دفن في الجانب الشرقي من نهر الأردن. راجع:

وفود من المسلمين المقيمين في مدن وبلدات مختلفة في فلسطين تلتقي في القدس للسير في موكب جماعي إلى مقامه في الأسبوع الذي يسبق عيد الفصح الأرثوذكسي.<sup>٧٠</sup> وفي وقت مبكر من صبيحة يوم الجمعة ذاك، كانت كل عائلة أو جماعة دينية تحمل علمها الخاص، وجميعها من مختلف الألوان والأشكال والتصاميم، وكانوا ينحدرون في موكب كبير في الطريق النازلة نحو وادي الأردن، بعضهم كان ماشياً، وبعضهم كان يركب على ظهور الخيل، فيما كان البعض الآخر يكون راكباً في العربات، وكان صدى الهتافات والأغاني، وكثير منها كان نا طابع سياسي خلال فترة الانتداب،<sup>٧١</sup> كان صداها يتردد في الفضاء. وجمع عائلات القدس لمشاهدة الموكب. يستذكر واحد من المقدسيين ذكريات طفولته عن هذا الموسم:

... لم يكن العيد هو الأكثر متعة، بل احتفالات النبي موسى. كان لدينا أقارب يعيشون في جانب من المساكن المحيطة بالحرم، لذلك كنا نذهب إلى هناك ونقف على السطوح لمشاهدة الموكب من الأعلام والصوفية ومن الجميع بينما كانوا يسيرون إلى مقام النبي موسى. وأعتقد أننا ذهبنا مرة واحدة إلى النبي موسى في عام ١٩٤٦، أو حول هذا التاريخ. قضينا ليلة هناك مع أخي لأنه كان عضواً في إحدى فرق الكشافة. كان موسم النبي موسى يأتي في فصل الربيع، وكانت جميع الأسر تخرج في نزهات تحت الأشجار في جميع أنحاء الحرم المنطقية التي تحيط بقبة الصخرة و المسجد الأقصى، وقد ذهبنا مرتين مع والدي وأمي وصديقاتها، ومع الأقارب، وكانت نزهة، وهكذا دواليك.<sup>٧٢</sup>

لقد عقد موسم النبي موسى في الوقت نفسه الذي كانت تعقد فيه احتفالات عيد الفصح الأرثوذكسي المسيحي، ومن ثم استخدام التقويم المسيحي (السنة الشمسية) لتعيين مواعيد بدلاً من استخدام التقويم القمري الإسلامي، ويعتقد أن التوقيت هو رد فعل

خالد مزار، عباس نمر، وسامي مسلم، *مقام النبي موسى*. أريحا: لجنة تشجيع السياحة في محافظة أريحا، ١٩٩٨.

٧٠ خلافاً للاحتفالات الدينية الإسلامية الأخرى. والتي يتم تحديد وقتها وفقاً للتقويم القمري. وبالتالي تختلف على مدار السنة. يرتبط هذا الاحتفال بالاحتفال بعيد الفصح الأرثوذكسي.

٧١ يورد صبحي غوشة في سيرته الذاتية *شمسنا لن تغيب*، (د. ن. د. ت. ن. ١٩٨٨، ص. ٤٣-٤٤) بعضاً من هذه الأغاني. وتذكر لدى فيرا تماري بعض الأهازيج (الأغاني) السياسية في:

«Two Ottoman Ceremonial Banners in Jerusalem» in *Ottoman Jerusalem: The Living City 1517-1917*, ed. Sylvia Auld and Robert Hillenbrand (London: Altajir World of Islam Trust, 2000), pp. 317-323).

٧٢ مقابلة مع محمد زهير النمري أجريت في عمان. الأردن بتاريخ ٦ تموز/ يوليو ١٩٩٩.

سياسي للمسلمين على الحشود الكبيرة من المسيحيين والموكب المختلفة التي تنحدر على القدس خلال موسم عيد الفصح، وعلى الاحتفالات التي تواكب المناسبة وتظهرها.<sup>٧٣</sup>

بالنسبة للمسيحيين، فإن عيد الفصح هو أهم عيد من الأعياد المسيحية، وكان قبل عام ١٩٤٨ يشهد حضور الحجاج من مصر ولبنان وسوريا، فضلاً عن اليونان وتركيا وقبرص وروسيا.<sup>٧٤</sup> وكانت الاحتفالات تستمر أسبوعاً كاملاً، يبدأ من أحد الشعانين ويشمل سبت النور، وهو يوم السبت قبل عيد الفصح عند الأرثوذكس، حيث يخرج البطريرك اليوناني من داخل كنيسة القيامة بالنار المقدسة. ورغم أن هذه المناسبات كانت دينية مسيحية إلا أن المسلمين كانوا يشاركون فيها، إمّا متفرجين وإمّا بصفتهم من المسؤولين الرسميين، ذلك أن اثنتين من الأسر المسلمة كانتا قد منحتا الحق في حمل مفتاح الكنيسة وفي فتح بابها: عائلتي نسبية وجودة.<sup>٧٥</sup>

٧٣ لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع. أنظر:

Awad Halabi's «The Nabi Musa Festival under British-Ruled Palestine» ISIM Newsletter, July 2002.

اعتمدت فيرما تماري في مقالها:

«Two Ottoman Ceremonial Banners». على مقابلات مع المشاركين في احتفالات النبي موسى. لمرويات فردية أخرى. أنظر أيضاً:

the Jerusalem Quarterly File، والتي لديها ترجمة شخصية مختصرة لإبراهيم الدقاق:

(<http://www.jerusalemquarterly.org/details.php?cat=15&id=130> (February 12, 2007))

أو أنظر مقالة سليم تماري عن الحداثة في القدس العثمانية، والتي تشير لاحتفالات الفصح والنبي موسى. في الموقع الإلكتروني:

(<http://www.jerusalemquarterly.org/details.php?cat=2&id=93> (February 12, 2007))

انتهت احتفالات الموسم عام ١٩٤٧ (وكان يمنع بشكل متكرر من قبل حكومة الانتداب قبل عام ١٩٤٨). وقد استخدم كلاً من البريطانيين (قبل ١٩٤٨) والأردنيين (١٩٤٨-١٩٦٧) المقام مركزاً عسكرياً. أعيدت الاحتفالات بالموسم (الزيارة السنوية) عدة مرّات: أولها عام ١٩٨٧ لسنة واحدة. ثمّ عام ١٩٩٥. وقد نظّمت تحت رعاية المجلس الإسلامي الصوفي المقدسي. منذ عام ١٩٩٦، أصبح المقام تحت إشراف السلطة الوطنية الفلسطينية ومنظمة غير حكومية تدعى لجنة تطوير السياحة في محافظة أريحا. بالتعاون مع وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. وقد قامت اللجنة بترميم المقام وتنظيفه وإعادة الاحتفال بالموسم السنوي. (راجع مرّاراً وآخرون. مقام النبي موسى).

٧٤ للمزيد عن احتفالات طائفة اليونان الأرثوذكس بعيد الفصح في القدس. ولوصف تفصيلي بقلم فلسطيني أرثوذكسي يوناني. أنظر:

John H. Tleel / *am Jerusalem*. (Jerusalem: n.p., 2000).

٧٥ لمعرفة المزيد عن أسباب منح المسيحيين للمسلمين هذه الأوقاف. راجع: Tleel / *am Jerusalem*

وبالنسبة لبعض المسيحيين في القدس، فقد كانت احتفالات عيد الميلاد تماثل هذا الخليط الدولي. وفي حين تستذكر ماري جوري على الأغلب تقاليد الأسرة في ذكرياتها عن أعياد الميلاد في القدس، فإن أفراد العائلة كانوا يشاركون في الاحتفالات الدينية ليلة عيد الميلاد: قضينا الجزء الأكبر من ليلة عيد الميلاد نراقب على مدار الساعة، ذلك أنّ الإثارة لم تكن لتبدأ إلا في وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر، عندما كان الأب والأم ونحن الثلاثة ننتقل بصورة مكتومة، ولكن حارة جداً، في طريقنا إلى حقل الرعاة على مشارف بيت لحم، للمشاركة في خدمة احتفال «كل الأمم» بأعياد الميلاد السنوية، وللغناء الجماعي المنظم من قبل جمعية الشبان المسيحية. إنّ حقل الرعاة عبارة عن قطعة صغيرة نسبياً من الأراضي العشبية المزروع فيها أشجار من الزيتون، ووفقاً للتقليد المسيحي، فقد ظهر في هذا المكان ملاك للرعاة وأبلغهم بشرى ولادة المسيح. [...] كان حجاجٌ وسياحٌ وزوارٌ من جميع أنحاء العالم يضيّمون في الغناء مع المسيحيين العرب، أهل البلد، فينشدون أناشيد عيد الميلاد الجماعية المألوفة، ولكن كل في لغته الخاصة. واقفة في وقت متأخر من ليلة هواؤها جليدي بارد من ليالي بيت لحم، مع سماء صافية مضيئة، أنتظر نجمة المساء للظهور، جنباً إلى جنب مع أناسٍ من جميع دول العالم، كان يهيمن عليّ الشعور بتوحّدٍ مثيرٍ مع جميع الكون.<sup>٧٦</sup> لقد اكتنف روعة الزهرة لعائلة مجتمعة مع بعضها رغم البرد، تصاحبها المشاعر الدينية والطائفية لهذا العيد، شعور بأهميته الخاصة عندما يتم الاحتفال به في المكان الذي يعتقد أنّ أحداثه المركزية جرت فيه. لقد قدمت منطقة القدس فرصاً وفيرةً لليهود والمسيحيين والمسلمين لمثل هذه المناسبات.

لقد صيغت الاحتفالات الدينية التي يتذكرها الأطفال مع وضع القدس وضواحيها باعتبارها محوراً لتلك الأحداث، ولكن أيضاً مع الوعي بالعدد الكبير من الناس الذين سيأتون للقدس في هذا الوقت، سواء من داخل فلسطين أو من خارجها. يتردد في ذكريات الطفولة للفلسطينيين عن هذه الأحداث، وعيهم المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتركيبة السكانية للمدينة، بأهمية هذه المناسبات الدينية لعائلاتهم الخاصة ولتجمعات دينية أكبر وأوسع. ومع ذلك، فإن السياسة المتعلقة بالماضي والحاضر هي من الأهمية بمكان لمسألة كيف يتم استذكار هذه الأحداث، لقد تمّ في عهد الانتداب البريطاني حظر احتفالات النبي

٧٦ Mary Joury, «A Child's Christmas in the Holy Land», [www.jerusalemmites.org/memoirs/christmas](http://www.jerusalemmites.org/memoirs/christmas) (accessed February 27, 2000).

موسى في أوقات مختلفة، ولا سيما في الفترة منذ عام ١٩٣٧، ولم تجر هذه الاحتفالات في الفترة ما قبل عام ١٩٤٨ وحتى الأونة الأخيرة، حيث تمّ إحيائها، لكن بشكل مختلف كثيراً، في عهد السلطة الفلسطينية. وبالمثل، فإن السيطرة الإسرائيلية على المدينة بعد حرب عام ١٩٦٧ وضعت حداً للحج المسيحي من غير دول الشرق الأوسط. ولقد منع الشتات الفلسطيني عدداً كبيراً من الفلسطينيين من أن يعيدوا تمثيل هذه الاحتفالات الدينية بعد عام ١٩٤٨، مما يعني أنهم فقدوا ليس فقط كل الارتباطات الأسرية بهذه الأماكن، بل وأيضاً القدرة على نقلها لأبنائهم، باستثناء عبر نصوص الذكريات، مؤطرة ضمن مناقشات أكثر انفتاحاً حول العلاقات المجتمعية والوضع السياسي في الفترة ما قبل عام ١٩٤٨.

## القدس والوعي والنشاط السياسي

كانت القدس مقراً لحكومة الانتداب البريطاني، وعلى هذا النحو، فقد كان الأطفال على علم بسلطة الولاية بوصفها مصدراً لإحباط التطلعات الوطنية الفلسطينية، وعلى علم أيضاً بأنها كانت صاحبة العمل على الأقل لعدد من أفراد العائلة. لقد جرى التعبير عن مظاهر المشاعر الوطنية الفلسطينية بطرق مختلفة وكثيرة، وتعرض الطلاب والمدرسين على حدٍ سواء لقوة الاستعمار البريطاني، والتي فرضت مواضيع الدراسة، فضلاً عن هياكل السلطة التي كان على السكان الأصليين، أهل البلد، الخضوع لها. تستذكر هالة السكاكيني في سيرتها الذاتية قصصاً روتها خالتها ميليا، شقيقة خليل السكاكيني، حول العمل مع المسؤولين الاستعماريين: عندما كانت العمة ميليا تعمل مدرسة في مدرسة حكومية، وكانت الأنسة ريدلر، وهي امرأة إنجليزية، مفتشة على مدارس البنات. وكانت استعمارية عريقة، ومحافظة من النمط القديم. توقعت أن يقوم كل المعلمين من «أهل البلد» بتكريمها، ولم تكن لتحتمل أن يتصدى أو يقف أي شخص لها. وكان يبدو أنها تجد متعة في إهانة معاونيها ومرؤوسيهيها، وكثيراً ما حدثتنا العمة ميليا عن بعض زميلاتها اللواتي كنّ ذليلات أمام المفتشة بشكل مقزز، ولقد كانت العمة تشعر عادةً بالحرج الكبير حين ترى لأي مستوى يمكن أن تنخفض هؤلاء المعلمات من أجل إرضاء الأنسة بيدلر.

وفي يوم من الأيام كانت المدرسات في مدرسة عمتي يقمن بصف الفتيات في الملعب لدخول الغرف الدراسية

بعد فترة الاستراحة، وكانت الأنسة ريدلر حاضرة، كان على الفتيات أن يصعدن مسافةً حادةً وطويلةً من السلام إلى قاعات الدرس في الطابق الأول، وبينما كانت كل معلمة تقود بنات صفها مارّات من أمام الأنسة ريدلر، ظنّت الأخيرة أنّها سمعت البنات يضحكن، وفي فورة غضبها أعطت واحدة من تلك الأوامر السخيفة التي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى جعل الوضع أسوأ مما هو عليه، فطالبت بأن تمرّ كل معلمة من أمامها وتؤدي التحية لها بطريقة عسكرية، وكان على الفتيات أن يفعلن ذات الأمر، أعيدت جميع الصفوف المدرسية إلى الملعب حيث بدأت الفتيات بالمشي من مواقعهن الأصلية إلى صفوفهن مرة أخرى، ومرّت الصفوف واحداً بعد الآخر من أمام الأنسة ريدلر، ورفعت المعلمات أيديهن بالتحية لها وحذت الفتيات حذوهن، وعندما جاء دور العمة ميليا وبنات صفها مرّت دون أن تؤدي التحية، في تحدٍ واضح وجليٍّ منها لهذا الأمر. وعندما وصلت آخر فتاة في الصف إلى أعلى الدرج طلبت الأنسة ريدلر بحدة بضرورة عودة الجمع إلى نقطة البداية، والاصطفاف من جديد، ومن ثمّ الذهاب للصف بعد أداء التحية، لكنّ العمة ميليا رفضت الامتثال للأمر، وكان على الأنسة ريدلر الاستسلام للواقع.<sup>٧٧</sup> يبين استذكار هالة السكاكيني لتحدي عمّتها ميليا ورفضها الامتثال لأوامر الأنسة تيدلر، ورفضها للاعتراف بالسلطة الاستعمارية، كيف أنّها، حتى وهي طفلة، كانت على علم بأن هذا كان عملاً من أعمال التحدي من قبل عمّتها، التي حافظت على إحساسها بالكرامة واحترام الذات، وأقنعت بعض زميلاتها المعلمات بأن يحذرن حذوها. يعرض السرد أعلاه رفض ميليا السكاكيني الامتثال لمطالب المفتشة في أن يتم أداء التحية لها، من دون إعطاء تفسير لماذا كانت قد رفضت. لا تفسر هالة في استذكارها لمواجهتها مع الأنسة تيدلر لماذا رفضت العمة ميليا أن تؤدي التحية بدلا من ذلك، تعرض هالة تصرّف ميليا بأنّه عقلائيّ وذو معنى، في حين كانت المفتشة البريطانية هي التي تظهر عاطفية وغير منطقية، وذلك لمحاولتها استخدام سلطتها للتقليل من قدر المعلمين الأهلين.

يحثل البريطانيون وأعمالهم وعقوباتهم مكاناً بارزاً في ذكريات الطفولة من هذه الفترة. بينما كانت سيرين [جمال] الحسيني [شهيد] طالبة في مدرسة الفرندز برام الله حوالي عام ١٩٣٥، تلقت خبراً عبر الصحف اليومية أن والدها، زعيم الحزب العربي الفلسطيني، ورئيس تحرير جريدة اللواء، قد اعتقله البريطانيون في فلسطين.

<sup>٧٧</sup> Sakakini, *Jerusalem and I*, pp. 27-28.

وقد أصابها الحرج والصدمة والربح، لأنّها ظنّت أنّه يتم القبض على المجرمين العاديين فقط، ولم يكن إحساسها ليتغيّر إلاّ في وقت لاحق، حين اكتشفت أنّ هذه العقوبات تستخدم أيضاً كإجراءات ضد الأعمال السياسية. تصف الحسيني هذا الوضع بمثابة «صحة سياسية» لها نفسها ولزميلاتها الطالبات، الأمر الذي أدى إلى الانتقال من مرحلة الطفولة إلى النضج المبكر.<sup>٧٨</sup> يشكّل النضج السياسي للأطفال، والدروس التي تعلّموها من هذه التجارب مكوّناً إضافياً لذكريات الطفولة.

بالنسبة لحافظ أمين الدجاني فإنّ وعيه السياسي جاء بمثابة نقطة الشرف للدفاع عن مدينته، القدس. ناقش أستاذه في واحد من صفوفه الثانوية في المدرسة الرشيدية في القدس، الإضرابات والمظاهرات في مختلف المدن الفلسطينية، قائلاً أنّ أهل القدس لم يشاركوا في المقاومة، ولكنهم قاتلوا بأقلامهم فقط، التمس الطلاب من الدجاني، وكان واحداً من اثنين فقط من طلاب القدس، وكان أيضاً بمثابة شاعر المدرسة، الرد على المعلم في قصيدة شعرية. انتظر الدجاني بصبر الدرس في اليوم التالي، وطلب من معلمه الإذن بأن يقرأ قصيدة شعرية له، جاء جزء منها كما يلي:

البيت يشهد والحرم	للقدس مرآة الأمم
أنّ العلا والمجد	والأخلاق فيها والكرم
وشبابها الأبرار	تحمي العلم فيها والعلم
وشبابها الأبطال أسد	الثرى في السلم أرباب القلم
زعموك يا قدس العزيزة	أنّ مجدك منهدم
إنّ كان مجدك هكذا	كذب الزعيم و ما زعم <sup>٧٩</sup>

يروى الدجاني أنّه بعد أن قرأ قصيدته هتف الطلاب بسرور وترحيب، فلم يعجب المعلم كل ذلك، فزعم أنّ الطلاب قد أسأؤوا فهمه، وأنّه في الواقع يحترم القدس والمقدسيين كثيراً. يوضح هذا الموضوع لحظة حاسمة في بلوغ الدجاني سن النضج على المستويين الشخصي والوطني. لقد حافظ على سمعته باعتباره «شاعر الرشيدية» من خلال تأليف هذه الأبيات بين ليلة وضحاها، وذلك بناءً على طلب زملائه الطلاب، بشأن موضوع ذي أهمية وطنية لهم جميعاً. لقد حشدت هذه القصيدة الشعرية الطلاب حول التعبير عن الفخر

٧٨ Serene Husseini Shahid, *Jerusalem Memories* (Beirut: Naufal Group, 2000), p. 79.

لقد تزوجت سيرين رجلاً من عائلة شهيد وحملت بالتالي اسم عائلته.

والاعتزاز المحلي والوطني، ونجحت في الحصول على تراجع المعلم عن أقواله. لقد كانت مثل هذه المقاومة للسلطة نادرة في المدارس، ولكن في هذه الحالة لم يتصرف الطلاب بفظاظة ولا بعدوانية، ولكنهم أعربوا عن عدم رضاهم من خلال الشعر، والذي هو منتدى مألوف للمناقشة والنقد في المجتمع العربي، فقد قام الدجاني بتعبئة المشاعر من خلال شعره، مبيّناً لزملائه قوة الكلمة، ولكنّه في الوقت نفسه، ومن المفارقات، كان الدجاني يعكس بعمله صحة النقد الذي وجهه المعلم لأهل القدس، أنهم حاربوا بأقلامهم فقط، وهو تماماً ما قام الدجاني بفعله في الواقع. تبين القصة هذه أنّ المعلم كان غير مخلص لانتقاده المقدسيين، وبالتالي خائناً للمشاعر الوطنية. لقد دافع الطلاب والدجاني عن القضية الوطنية، وعن أهلهم المقدسيين، وأيضاً عن دورهم في النضال الوطني من خلال قصيدة. لقد كان مطلوباً من الطلاب كي ينشأوا فلسطينياً في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، فهم ليس فقط دور الاستعمار البريطاني وأهداف الحركة الصهيونية، ولكن أيضاً تطور الحركة الوطنية الفلسطينية. حققت هذه اللحظة من المواجهة مع المعلم في الدجاني قدرته الخاصة على التعبير عن مشاعره حول مسقط رأسه، وحول النضال الذي كان يدور حوله داخل الحركة الوطنية الفلسطينية.

تستذكر سيرين الحسيني الأنشطة السياسية لثورة ١٩٣٦ مع وعيها بموقعها شخصياً. لقد كانت حينها تبلغ من العمر ستة عشر عاماً، ووقعت في ذلك الوقت بين أن تكون فتاةً قادرةً على أن تفعل كما تحب، وبين كونها امرأةً شابة من عائلة مرموقة كان لها موقعها في المجتمع، الأمر الذي كان قد قيّد سلوكها.

بالنسبة لي، فقد كان ذلك الصيف عام ١٩٣٦ وقتاً محبباً بشكل خاص، وذلك لأنني شعرت أنني مستعدة ومعزولة عن الأحداث المحيطة بي. لقد كنت صغيرة جداً بحيث يمكن إشراكي في الأنشطة السياسية للبالغين، ولم أكن شابةً لدرجة كافية كي أستمتع بالأنشطة السياسية المصطنعة لأخواتي، لم أكن لأتمكن من الخروج مع [أخي] حسن والأولاد الآخرين، وننشر المسامير في الشوارع كي تفجّر عجلات تلك السيارات التي لم يلتزم أصحابها بالإضراب. وعندما لم أكن أسهر على أشقائي الأصغر سنّاً، أو أقوم بالمساعدة في الأعمال المنزلية، كنت أقضي وقتي في القراءة والحياسة، وكنت مرةً فخورةً جداً عندما طلبت مني أمي المساعدة في مساعي الجمعية النسائية لجمع التبرعات، وذلك بتعليق الإقحوانات البيضاء على صدور المارة، ولكن هذا النوع من المشاركة كان نادراً للغاية

كان الإنجليز قد أقاموها على مداخل سور القدس القديمة، وكذلك حمل وإيصال النشرات التي كانت تصدرها قيادة الثورة و قيادة الفدائيين وإلصاقها على الجدران. [...]

في الشهر الأول من سنة ١٩٣٩، وبينما كنت أقف أمام الحانوت الذي اشتغل فيه في «سويقة علون»، أحاط بي عدد من رجال المخابرات البريطانيين يقودهم أحد المخبرين، وكان اسمه «صلاح الزين»، وسمعته يقول لهم: «هذا هو عودة الأشهب، أخو عيد» فانقض عليّ رجال المخابرات، واعتقلوني وأخذوني إلى مركز المخابرات التي كان اسمها «سي أي دي»، وهناك فتشوني تفتيشاً دقيقاً. من حسن الحظ، لم أكن أحمل شيئاً. [...]

وقد ضربني المحقق عدة ضربات على وجهي، من أجل أن أعترف له عن أعمال الفدائيين. [...] تواصل التحقيق يوماً خلال الأسبوع الأول لاعتقالي، ولمدة ساعة، ثم كانوا يلقون بي إلى القبو الكائن تحت الدرج، وفي الليل يربطوني بالسريير الحديدي، وفي اليوم الثامن، كما أذكر، نقلوني بعد التحقيق إلى بيت في حي الشيخ جراح تملكه عائلة «الجبشة»، جعلوا منه مركز توقيف الأحداث.<sup>٨١</sup>

أمضى عودة أكثر من سنة أشهر في مركز اعتقال في بيت لحم، وأرسل بعد ذلك إلى سجن عكا. ووصف هذه الفترة بأنها «مرحلة تحول مصيرية في حياتي»،<sup>٨٢</sup> لم يقم فقط بالدراسة في السجن، وإكمال التعليم الذي كان قد بدأ به قبل أن يبدأ العمل في سن الثالثة عشرة، لكنّه التقى أيضاً الأشخاص الذين عمل معهم في وقت كناشط سياسي في الحزب الشيوعي والنقابات العمالية بقية حياته.

في وقت مبكر، شكّل الأطفال وعياً بالطبيعة السياسية للأحداث خلال هذه الفترة، إما من خلال تجارب عائلاتهم وأقاربهم أو من خلال تجاربهم الخاصة. ونظراً لوقوع مكاتب حكومة الانتداب البريطاني في القدس، فإنّ العديد من أفراد أسرهم كانوا على اتصال مباشر مع السلطة الحكومية، وكانوا أيضاً مشاركين في خوض نشاطات احتجاجية ضد تلك السلطة. أراد الأطفال في بعض الحالات الانخراط في المقاومة، وكان هناك نجاح كثير أو قليل، تبعاً لإشراف أسرهم، ودورهم الاجتماعي المحدد حسب جنسهم، وكذلك طبقتهم الاجتماعية.

٨١ الأشهب. تذكرات. ص. ٢٤-٢٥.

٨٢ الأشهب. تذكرات. ص. ٣١.

بينما تذكر سيرين الحسيني أن عمرها كان العامل الذي منعها من المشاركة الكاملة في الأحداث السياسية، فإنّ عاملي العمر والدور الاجتماعي المحدد لها بناءً على جنسها (الجندر) مجتمعين هما اللذان كانا على الأرجح السبب. من المؤكد أنّ انعدام الأمن في الحالة السياسية، إلى جانب موقعها كامرأة شابة في سن الزواج، قد جعل وجودها في الشوارع مع شقيقها أو مع أمّها من غير المرغوب فيه.

بالنسبة لأطفال آخرين، فقد كان لوعيهم ونشاطهم السياسي عواقب وتأثيرات على حياتهم أخطر بكثير. أنهى عودة الأشهب تعليمه المدرسي في مدينة الخليل من أجل أن يأتي للعمل في القدس، ولكنه واصل فيها تعليمه السياسي، انضم شقيقه عيد للمقاومة الفلسطينية في القدس، ثم اضطر الأخوان للفرار إلى الخليل بعد أن قام الجيش البريطاني بتفتيش منزلهما في القدس، ثم انضم عيد لجماعات المقاومة في جبال الخليل أثناء ثورة ١٩٣٦، وقتل على يد البريطانيين. انضمّ عودة بعد ذلك، وكان عمره حوالي ١٥ سنة، للمقاتلين الفدائيين:

وقد صممت على أن التحق بصفوف الثوار والفدائيين في القدس مكان أخي الشهيد، وبعد وصولنا البيت في القدس بعدة أيام ذهبنا إلى المسجد الأقصى، وبالتحديد إلى الغرفة الكائنة على ما يسمى «سطوح الصخرة»، حيث تتواجد قيادة الفدائيين وتوجهت إلى من كان يعرف بقاضي الثورة «الشيخ شكيب القطب». [...]

وطلبت الانضمام لصفوف الفدائيين المناضلين ضد العدو الاستعماري، وأذكر أنه نظر إليّ ملياً وسألني عن اسمي وعمرى، ولمّا عرف أنني أخت للشهيد عيد رحّب بذلك، وقال لي أن أكون دائماً على صلة به حتى تحين فرصة قيامي ببعض المهمات، وطلب إليّ أن أكتّم الأمر ولا أتحدث لأحد عن ذلك، فوعدته، ورجعت إلى البيت، واتجهت للعمل مكان أخي عيد عند بائع الخضار والفواكه، سليمان المتولي، بسبب تواجده داخل أسوار القدس قريباً من موقع القيادة. [...]

وبحكم عملي في توصيل طلبات المطاعم والفنادق من الخضار والفواكه، أفلحت في نقل بعض قطع الأسلحة، وخاصة المسدسات والقنابل اليدوية، وكنت أمررها عبر مراكز التفتيش التي

٨٠ Shahid, Jerusalem Memories, p. 89.

## الخلاصة

العالي. غير أنه كان هناك طلاب لم يستطيعوا إنهاء تعليمهم الابتدائي، والذي يبدو أن هذا الحال ينطبق بصفة خاصة على الفتيات والفتيان من الأسر الفقيرة، والذين تركوا الدراسة، أو بالأحرى تم سحبهم من المدرسة، من أجل العمل أو استعداداً للزواج.

لقد تمّ تجاوز الانقسامات الطبقيّة التي ميزت المجتمع الفلسطيني المقدسي قبل عام ١٩٤٨ في كثير من الأحيان من خلال الاحتفالات الدينية في المدينة، فعندما احتفل الأطفال بالمناسبات الدينية، قاموا بذلك مع الأقارب ومع غيرهم من أتباع دينهم ممّن كانوا من طبقات اجتماعية واقتصادية متفاوتة ومختلفة. تكوّن مركزية القدس كمكان ذي أهمية دينية لليهودية والمسيحية والإسلام روابط إيجابية وسعيدة في ذكريات الطفولة عن المدينة، تستحضر هذه الذكريات المتعلقة بالاحتفالات الدينية، وخاصة النبي موسى وعيد الفصح، الجو الودّي والتآلفي العام لمجتمعات وفئات المدينة المتعددة، والذي كان يشعر به معظم سكان القدس، بغض النظر عن عقيدتهم الدينية الخاصة، وهي ممارسة لا تزال حتى يومنا هذا بين المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين. و يبدو في الوقت نفسه، أن الاحتفالات الدينية وفّرت الوقت للاجتماعات ورحلات النزهة العائلية؛ ولأنّ الحجاج من كل أنحاء فلسطين ومن خارج البلاد حضروا هذه الاحتفالات، فإنّ القدس، بوصفها مركزاً للسياحة والحج، وكمدينة مفتوحة للجميع، قد هيمنت على ذكريات الطفولة من فترة ما قبل عام ١٩٤٨.

وأخيراً، فإنّ دور القدس باعتبارها مقراً لحكومة الانتداب البريطاني، وكذلك باعتبارها مركزاً مهماً للمقاومة الفلسطينية قد أرفد ذكريات الطفولة بالوعي السياسي المتعلق بآثار الاستعمار، وبعدم تمتع الفلسطينيين بحق تقرير المصير، وثمة عامل توحيد في ذاكرة الأطفال وهو إدراكهم لشعور المجتمع الفلسطيني بالظلم الواقع عليه في إطار المشاريع الاستعمارية للانتداب البريطاني والحركة الصهيونية. وسواءً ما إذا كان أفراد أسرهم يعملون لحساب الحكومة، أو شاركوا في المقاومة، أو كان الأطفال أنفسهم نشطاء على الصعيد السياسي، فإنّ ذكريات الطفولة تميل إلى التركيز على الوعي بأنّ الاضطراب والصراع السياسي يشكّل نقطة تحول في حياتهم، وسبباً في بلوغ سن الرشد، نضوجٍ قسري أدركوا معه أنهم لم يعودوا «أطفالاً».

في نهاية المطاف، وعلى أية حال، فإن أحداث عام ١٩٤٨ هي التي أحدثت أعمق التأثير على ذكريات الطفولة، وهي التي تدل على التغيرات في البيئة الاجتماعية والعائلية والاقتصادية والسياسية تقريباً

إنّ دراسة الطفولة الفلسطينية في القدس قبل عام ١٩٤٨ تجعلنا على بينة من القيود في كل من المصادر وفي الدراسات العلمية لهذه الفترة. ثمة عدد قليل من المصادر والإحصاءات الحكومية حول هذه الفترة، وبالتالي يجب أن يتحول العلماء والباحثون إلى الذكريات الشخصية، كما تمّ التعبير عنها في السيرة الذاتية والروايات الشفوية. تقدم لنا ذكريات الطفولة الفلسطينية في القدس قبل عام ١٩٤٨ صورةً عن مدينة كانت مقسمة، ليس كثيراً بين اليهود والعرب، ولكن، وبالنسبة للفلسطينيين، بين أولئك الذين يعيشون في الأحياء الواسعة والثريّة في المدينة الجديدة، وأولئك الذين يعيشون في أحياء البلدة القديمة التي بنيت بيوتها قريبة من بعضها البعض، والتي كانت شديدة الازدحام، ونظراً لطبيعة النمو العربي المسيحي والمسلم خارج أسوار المدينة، فإنّ أولئك الذين كانوا قادرين اقتصادياً على الانتقال لخارج البلدة القديمة المزدهمة، وإلى المدينة الجديدة الأكثر اتساعاً وازدهاراً قد اغتنموا هذه الفرص، وهو ما كان يعني في كثير من الأحيان أن يتلقّى أطفالهم التعليم في المدارس الخاصة، وأنّه ليس عليهم العمل في سن مبكرة. تبين المذكرات التي كتبت في وقت لاحق أن الأطفال الذين نشأوا في المدينة الجديدة تذكروا الأوقات التي قضوها في لعب كرة القدم وقطف الزهور في الحقول الفارغة بالقرب من منازلهم بعد انتهاء اليوم الدراسي، وعادة ما كان الأطفال في البلدة القديمة خاضعين لاحتياجات أسرهم الاقتصادية والاجتماعية، وكثيراً ما كان عليهم الذهاب للعمل، وتوفير الاحتياجات اليومية للأسرة، أو مساعدة آبائهم أو أمهاتهم في المنزل أو مع الزبائن أو الضيوف. وقد كان هذا التقسيم يعني أن الأطفال الفلسطينيين الذين يعيشون في البلدة القديمة أو في الأحياء العربية من المدينة الجديدة كانوا أكثر عرضة للاختلاط مع غيرهم من أبناء نفس طبقتهم من الجماعات الدينية والعرقية، بدلاً من البقاء ضمن نفس مجموعاتهم الدينية أو العرقية، وكما يتضح في السيرة الذاتية، فقد أنشأ وطوّر الأطفال وأسرهم علاقات مع المسلمين والمسيحيين من فئات متنوعة من الأعراق ومن الطوائف، في حالة المسيحيين، وكذلك مع السكان اليهود في المدينة. لقد شجّع التعليم، على وجه الخصوص، هذا الخلط، وجلب أيضاً الطلاب من جميع أنحاء فلسطين للدراسة في القدس. ونظراً لوجود عدد كبير من المدارس ومستويات عالية من التعليم، فقد توفّرت أمام الطلاب الذين درسوا في مدارس القدس فرص إضافية للعمل أو لتلقي التعليم

لكل مقدسي وفلسطيني. وهكذا، فإنّ التشريد والإفقار والإذلال التي تمّ تسجيلها في ذاكرة الناس في هذه الفترة تميز بوضوح فترة ما قبل عام ١٩٤٨ عن الأوقات الأكثر صعوبة التي ميّزت المستقبل بالنسبة لهم ولأسرهم. يصبح الانقسام الذي قسم القدس، في عام ١٩٤٨، انفصلاً بين الفلسطينيين واليهود، وجاء نتيجة لقرار

سياسي ولحدود وطنية تم فرضها على سكان المدينة. ذكريات الطفولة من قبل عام ١٩٤٨، تستذكر وقتاً عندما كانت الهويات الوطنية تندرج تحت، أو تتشكل جنباً إلى جنب مع، الارتباطات والانتماءات الدينية، والعرقية في القدس.